

مُخْتَصِرٌ تَفْسِيرٌ

# سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

تَفْسِيرٌ مُحَرَّرٌ مُتَّكَمِلٌ

اختصره من تفسير الإمام ابن كثير

بِمُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْمُهَنْبِي

راجعہ

د. نبيل بن نصار السندي

(نسبة هذا المختصر ٣٠٪ فقط من الأصل)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فهذا تفسير سورة آل عمران، اختصرته من تفسير الإمام ابن كثير، فجاء في ثلث الأصل فقط، مع اشتماله على عامّة ما في الأصل من المباحث والفوائد.

أدعو إخواني وأخواتي إلى الاستفادة منه، فهو خلاصة حافلة بالعلم والإيمان، مناسبة للقراءة الفرديّة والجماعيّة.

كما أدعوهم إلى نشره عبر وسائل النشر المتنوعة، رجاء الأجر والفائدة.

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

لإرسال الملاحظات والاقتراحات:



00966505490525



Almohanna.m@gmail.com



@almohannam

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ

وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو

### ﴿الْم ٤﴾ أَنْتِقَامٍ

قَدْ ذَكَرْنَا الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي أَنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿اللَّهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَ ﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ

الْكُرْسِيِّ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْم﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ،

بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ

الْقَيُّومُ﴾ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي: نَزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا

مُحَمَّدُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي: لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ، بَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَنْزَلَهُ

بِعَلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَي: مُصَدِّقًا لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ

مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ الْأَنْبِيَاءِ، فَهِيَ تُصَدِّقُهُ بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ وَبَشَّرَتْ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهُوَ يُصَدِّقُهَا لِأَنَّهُ طَابَقَ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ وَبَشَّرَتْ، مِنْ الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أَي: عَلَىٰ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أَي: عَلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أَي: فِي زَمَانِهِمَا.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، بِمَا يَذْكُرُهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، وَيَبِينُهُ وَيُوضِّحُهُ وَيَفْسِّرُهُ وَيَقَرِّرُهُ، وَيُرْشِدُ إِلَيْهِ وَيُنَبِّئُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: الْفُرْقَانُ هَاهُنَا الْقُرْآنُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَي: إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا بِهَا وَأَنْكَرُوهَا، وَرَدُّوهَا بِالْبَاطِلِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَي: مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمِ السُّلْطَانِ ﴿ذُو انْقِصَابٍ﴾ أَي: مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكِرَامَ، وَأَنْبِيَاءَهُ الْعِظَامَ.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ٥ هُوَ

الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

## ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ٦

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أَي: يَخْلُقُكُمْ كَمَا يَشَاءُ

فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَحَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَي: هُوَ الَّذِي خَلَقَ، وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةُ وَالْإِحْكَامُ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفٌ بَلْ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ مَخْلُوقٌ، كَمَا خَلَقَ اللَّهُ سَائِرَ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَوَّرَهُ فِي الرَّحِمِ وَخَلَقَهُ، كَمَا يَشَاءُ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا كَمَا زَعَمَتُهُ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - وَقَدْ تَقَلَّبَ فِي الْأَحْشَاءِ، وَتَنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذِنِّي تُصَرِّفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ  
 الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا  
 تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا  
 اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ  
 إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا  
 مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ  
 لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، أَي: بَيِّنَات  
 وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ، لَا التَّبَاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْهُ آيَاتُ أُخْرُ  
 فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ  
 عَلَيْهِ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ، وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ، فَقَدْ اهْتَدَى.  
 وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ  
 آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أَي: أَصْلُهُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْإشْتِبَاهِ

﴿وَأَخْرُمْتَشَابِهَهُ﴾ أَي: تَحْتَمِلُ دَلَالَتَهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا  
آخَرَ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَالتَّرْكِيبِ، لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادِ.

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْمُحْكَمِ وَالتَّمْشَابِهِيهِ، فَرَوَى عَنِ السَّلَفِ عِبَارَاتٌ  
كَثِيرَةٌ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْمُحْكَمَاتُ  
نَاسِخُهُ، وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ، وَحُدُودُهُ وَفَرَائِضُهُ، وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيُعْمَلُ بِهِ.

وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْمُحْكَمُ  
الَّذِي يُعْمَلُ بِهِ.

وَقِيلَ فِي التَّمْشَابِهَاتِ: إِنَّهُنَّ الْمَنْسُوخَةُ، وَالْمُقَدَّمُ مِنْهُ وَالْمُؤَخَّرُ،  
وَالْأَمْثَالُ فِيهِ وَالْأَقْسَامُ، وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَقِيلَ: هِيَ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ.

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ هُوَ مَا قَدَّمَاهُ، وَهُوَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ  
إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾  
فِيهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ، وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالتَّبَاطُلِ، لَيْسَ لَهُنَّ  
تَضْرِيْفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعْنَ عَلَيْهِ. قَالَ: وَالتَّمْشَابِهَاتُ فِي الصِّدْقِ،



لَهُنَّ تَصْرِيْفٌ وَتَحْرِيفٌ وَتَأْوِيلٌ، ابْتَلَى اللهُ فِيهِنَّ الْعِبَادَ، كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَلَّا يُضْرَفْنَ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يُحْرَفْنَ عَنِ الْحَقِّ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أَي: ضَلَالٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أَي: إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُحْرَفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَيُنْزِلُوهُ عَلَيْهَا، لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَضْرِفُونَهُ، فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ دَامِعٌ لَهُمْ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أَي: الْإِضْلَالِ لِاتِّبَاعِهِمْ، إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَىٰ بَدْعَتِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ، كَمَا لَوْ احْتَجَّ النَّصَارَىٰ بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَطَقَ بِأَنَّ عَيْسَىٰ هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَتَرَكُوا الْإِحْتِجَاجَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وَبِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عَيْسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ الْمُصَرِّحَةِ بِأَنَّهُ خَلِقَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَعَبْدٌ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أَي: تَحْرِيفِهِ عَلَىٰ مَا يُرِيدُونَ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ» (١). وهذا لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد عن أبي غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ قَالَ: هُمُ الْخَوَارِجُ (٢).

وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح؛ فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنه الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، فجاجروه بهذه المقالة، فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة - بقر الله خاصرته -: اعدل فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل! أيأمني على أهل الأرض ولا تأمنوني». فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب رسول الله في قتله، فقال: «دعه فإنه يخرج من ضضي هذا - أي: من

(١) البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٥٩)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٩٠٤٧) والبيهقي (١٨٨/٨) مطولاً.

جِنْسِهِ - قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ كَانَ ظُهُورُهُمْ أَيَّامَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَتَلَهُمْ بِالنَّهْرَوَانِ، ثُمَّ تَشَعَّبَتْ مِنْهُمْ شُعُوبٌ وَقَبَائِلٌ وَأَرَاءٌ وَأَهْوَاءٌ وَمَقَالَاتٌ وَنَحْلٌ كَثِيرَةٌ مُتَشَرِّعَةٌ، ثُمَّ نَبَغَتِ الْقَدَرِيَّةُ، ثُمَّ الْمُعْتَزَلَةُ، ثُمَّ الْجَهْمِيَّةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ فِي قَوْلِهِ: «وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي الْوَقْفِ هَاهُنَا، فَقِيلَ: عَلَى الْجَلَالَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَتَفْسِيرٌ

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠، ٧٤٣٢) ومسلم (١٠٦٣، ١٠٦٤) من حديث أبي سعيد، وأخرجه البخاري (٣٦١١) ومسلم (١٠٦٦) أيضًا من حديث علي. والسياق مجموع من حديثيهما.

(٢) «مستدرک الحاکم» (١/١٢٩)، وأخرجه أيضًا الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو. وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، فيه ضعف. قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه».

لَا يُعْذِرُ أَحَدٌ فِي فَهْمِهِ، وَتَفْسِيرِ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، وَتَفْسِيرِ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَتَفْسِيرِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَيُرْوَى هَذَا الْقَوْلُ عَنْ عَائِشَةَ، وَعُرْوَةَ، وَغَيْرِهِمَا.

وَمِنْ الْقُرَّاءِ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وَتَبِعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ الْأُصُولِ.

قال مجاهد: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا لِابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَكِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ» (١).

وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ فَصَّلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَقَالَ: التَّأْوِيلُ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنِيَانِ، أَحَدُهُمَا: التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَمَا يُوَوَّلُ أَمْرُهُ إِلَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الاعراف: ٥٣] أَي: حَقِيقَتُهُ مَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ هَذَا، فَالْوَقْفُ عَلَى الْجَلَالَةِ؛ لِأَنَّ حَقَائِقَ الْأُمُورِ

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٧) وابن حبان (٧٠٥٥) والحاكم (٥٣٤/٣)، وهو حديث صحيح، ونصفه الأول عند البخاري (١٤٣).

وَكُنْهَآ لَا يَعْلَمُهُ عَلَى الْجَلِيَّةِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَالرَّسْخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مُبْتَدَأً، وَقَوْلُهُ ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ خَبَرُهُ.

وَأَمَّا إِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ الْمَعْنَى الْآخَرَ، وَهُوَ التَّفْسِيرُ وَالتَّعْيِيرُ وَالتَّبْيَانُ عَنِ الشَّيْءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أَي: بِتَفْسِيرِهِ، فَالْوَقْفُ عَلَى: ﴿وَالرَّسْخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ وَيَفْهَمُونَ مَا خُوطِبُوا بِهِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، وَإِنْ لَمْ يُحِيطُوا عِلْمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى كُنْهٍ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ حَالًا مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ أَي: بِالْمُتَشَابِهِ ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ أَي: الْجَمِيعُ مِنَ الْمُحَكَّمِ وَالْمُتَشَابِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُصَدِّقُ الْآخَرَ وَيَشْهَدُ لَهُ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَانَ شَيْءٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمُخْتَلَفٍ وَلَا مُتَضَادًّا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَي: إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَدَبَّرُ الْمَعَانِيَ عَلَى وَجْهِهَا أُولُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفُهُومِ الْمُسْتَقِيمَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ مُخْبِرًا أَنَّهُمْ دَعَوْا رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا  
بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَي: لَا تَمِلْهَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَقَمْتَهَا عَلَيْهِ، وَلَا تَجْعَلْنَا  
كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ ثَبَّتْنَا عَلَى  
صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ وَدِينِكَ الْقَوِيمِ ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أَي: مِنْ عِنْدِكَ  
﴿رَحْمَةً﴾ ثَبَّتْ بِهَا قُلُوبَنَا، وَتَجَمَّعُ بِهَا شَمْلَنَا، وَتَزِيدُنَا بِهَا إِيمَانًا وَإِيقَانًا  
﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

روى ابنُ أبي حاتمٍ عن شهر بن حوشب، عن أمِّ سلمة، رضي الله  
عنها، أن النبي ﷺ كان يقول: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» ثُمَّ  
قَرَأَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ  
الْوَهَّابُ﴾ (١).

ورواه ابنُ مردويه عن أسماء بنت يزيد بن السكن أن رسول الله  
ﷺ كان يُكثِرُ فِي دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ، ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)  
قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: (نَعَمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ  
بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنْ قَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ شَاءَ  
أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ).

(١) إسناده حسن بشواهده.

وروى ابن مردويه أيضاً عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مُقَلِّبِ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» .

فقلت يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء! فقال: «لَيْسَ مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ، أَمَا تَسْمَعِينَ قَوْلَهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١) .

وأصله ثابت في الصحيحين (٢)، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة.

فَسَأَلَ اللَّهُ رَبَّنَا أَلَّا يُزِغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَنَسَأَلُهُ أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

(١) في إسناده لين، وقد روي من طرق أخرى عن عائشة عند أحمد (٢٤٦٠٤، ٢٦١٣٣) والنسائي في «الكبرى» (٧٦٩٠) وغيرهما دون ذكر الآية.

وروي أيضاً من حديث أنس عند أحمد (١٢١٠٧) والترمذي (٢١٤٠) والحاكم (٥٢٦/١). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) ثابت في صحيح مسلم (٢٦٥٤) فقط من حديث عبد الله بن عمرو، ولفظ الدعاء فيه: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفِ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».

وروى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عن قيس بن الحارث عن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصُّنَابِحِيِّ،  
 أَنَّهُ صَلَّى وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الْمَغْرِبَ، فَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ فِي الرَّكْعَتَيْنِ  
 الْأُولَيَيْنِ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَسُورَتَيْنِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصَلِ، وَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّلَاثَةِ،  
 قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَهَذِهِ الْآيَةُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ  
 لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَأَخْبَرَنِي عُبَادَةُ بْنُ نُسَيْبٍ: أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ  
 الْعَزِيزِ فِي خِلَافَتِهِ، فَقَالَ عُمَرُ لِقَيْسِ بْنِ الْحَارِثِ: كَيْفَ أَخْبَرْتَنِي عَنْ أَبِي  
 عَبْدِ اللَّهِ الصُّنَابِحِيِّ فَأَخْبَرَهُ. قَالَ عُمَرُ: فَمَا تَرَكْنَا مِنْهُ سَمِعْنَا مِنْهُ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ  
 الْمِيعَادَ﴾ أَي: يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: إِنَّكَ يَا رَبَّنَا، سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ  
 مَعَادِهِمْ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَتَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ،  
 وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٦٩٨) من طريق مالك، وهو في «الموطأ» (٢٠٩) بإسناد



﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ، وَكَيْسَ مَا أُوتُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِنَافِعٍ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا بِمُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿١١٦﴾ مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] .

وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿أَيُّ: بآيَاتِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ، وَلَمْ يَتَّفِعُوا بِوَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ﴾ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿أَيُّ: حَطَبُهَا الَّذِي تُسَجَّرُ بِهِ وَتُوقَدُ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَصَنِيعِ آلِ فِرْعَوْنَ. وَكَذَا رُوِيَ عَنِ عِكْرِمَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كَسُنَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَفِعْلِ آلِ فِرْعَوْنَ وَكَشَبِهِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَالْأَلْفَاظُ مُتَقَارِبَةٌ. وَالِدَّابُّ بِالتَّسْكِينِ، وَالتَّحْرِيكِ أَيْضًا كَنَهْرٍ وَنَهْرٍ: هُوَ الصُّنْعُ وَالشَّأْنُ وَالْحَالُ وَالْأَمْرُ وَالْعَادَةُ، كَمَا يُقَالُ: لَا يَزَالُ هَذَا دَأْبِي وَدَأْبِكَ، وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

وَقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئُهُمْ      يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَىٰ وَتَجَمَّلِ  
كَدَابِكَ مِنْ أُمَّ الْحَوَيْرِثِ قَبْلَهَا      وَجَارَتِهَا أُمَّ الرَّبَابِ بِمَا سَلِ

وَالْمَعْنَى: كَعَادَتِكَ فِي أُمَّ الْحَوَيْرِثِ حِينَ أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ فِي حُبِّهَا وَبَكَيْتَ دَارَهَا وَرَسَمَهَا.

وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَوْلَادُ وَلَا الْأَمْوَالُ، بَلْ يَهْلِكُونَ وَيُعَذَّبُونَ، كَمَا جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَحَجَجِهِ. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيُّ: شَدِيدُ الْأَخْذِ، أَلِيمُ الْعَذَابِ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ بَلْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، الَّذِي غَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ، وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿ قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلُبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ  
 وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ  
 تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلِهِمْ  
 رَأَىٰ الْعَيْنُ ۗ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ۚ .

يَقُولُ تَعَالَىٰ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ: ﴿سَتْغْلُبُونَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا  
 ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ .

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 لَمَّا أَصَابَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ مَا أَصَابَ وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، جَمَعَ الْيَهُودَ فِي  
 سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِمَا  
 أَصَابَ قُرَيْشًا). فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرَّنَكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ  
 قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ  
 النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَنَا! فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قُلِ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٠﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴿١٠﴾ أَي: قَدْ كَانَ لَكُمْ - أَيَّهَا الْيَهُودُ - ﴿آيَةٌ﴾ أَي: دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ مُعِزُّ دِينِهِ، وَنَاصِرٌ رَّسُولَهُ، وَمُظْهِرٌ كَلِمَتَهُ، وَمُعَلِّمٌ أَمْرَهُ ﴿فِي فِتْنَتَيْنِ﴾ أَي: طَائِفَتَيْنِ ﴿الَّتَقَتَا﴾ أَي: لِلْقِتَالِ ﴿فِئْتَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِيمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ: يَرَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَيْهِمْ فِي الْعَدَدِ رَأَى أَعْيُنِهِمْ، أَي: جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيمَا رَأَوْهُ سَبَبًا لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ أَي: تَرَى الْفِئْتَةَ الْمُسْلِمَةَ الْفِئْتَةَ الْكَافِرَةَ مِثْلَيْهِمْ، أَي: ضِعْفَيْهِمْ فِي الْعَدَدِ، وَمَعَ هَذَا نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

(١) أخرجه الطبري (٥/٢٣٩). وأخرجه أبو داود (٣٠٠١) والبيهقي في «دلائل النبوة»

(٣/١٧٣) من حديث ابن عباس، وفي إسناده لين. ويشهد له مرسل عكرمة عند

الطبري (٥/٢٤٠)، وما في «مغازي الواقدي» (١/١٧٦).

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ

حُسْنُ الْمَثَابِ ﴿١٤﴾ ﴿ قُلْ أُوْنِيَكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَم ۗ لِلَّذِينَ

اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

### بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَاذِمِ مِنَ  
النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، فَبَدَأَ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بِهِنَّ أَشَدُّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ) (١).

فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِهِنَّ الْإِعْفَافَ وَكَثْرَةَ الْأَوْلَادِ، فَهَذَا مَطْلُوبٌ  
مَرْغُوبٌ فِيهِ مَتْدُوبٌ إِلَيْهِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤١).

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ) (١) .  
 وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: (حُبُّ إِلَيَّ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ  
 عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) (٢) .

وَحُبُّ الْبَنِينَ تَارَةٌ يَكُونُ لِلتَّفَاخُرِ وَالزَّيْنَةِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا .  
 وَتَارَةٌ يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ  
 لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهَذَا مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: (تَزَوَّجُوا  
 الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنَّي مُكَاتِّرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٣) .

وَحُبُّ الْمَالِ - كَذَلِكَ - تَارَةٌ يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ وَالتَّكْبَرِ عَلَى  
 الضُّعَفَاءِ، وَالتَّجَبُّرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَهَذَا مَذْمُومٌ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي  
 الْقُرْبَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ  
 مَحْمُودٌ عَلَيْهِ شَرْعًا .

- 
- (١) أخرجه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو .  
 (٢) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣) والنسائي (٣٩٣٩) من حديث أنس، وصححه الحاكم  
 (٢/١٦٠)، والضياء المقدسي (٥/١١٢، ١١٣) .  
 (٣) أخرجه أحمد (١٢٦١٣) عن أنس بن مالك، وأخرجه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائي  
 (٣٢٢٧) عن معقل بن يسار. وحديث أنس صححه ابن حبان (٤٠٢٨، ٤٠٥٦)  
 والضياء (٥/٢٦١)، وحديث معقل صححه ابن حبان (٤٠٥٦) والحاكم (٢/١٦٢) .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مِقْدَارِ الْقِنْطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ، وَحَاصِلُهَا: أَنَّهُ  
الْمَالُ الْجَزِيلُ، كَمَا قَالَهُ الصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُ.

وَحُبُّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

تَارَةٌ يَكُونُ رِبَطُهَا أَصْحَابُهَا مُعَدَّةً لِسَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، مَتَى اِحْتَاجُوا إِلَيْهَا  
غَزَوْا عَلَيْهَا، فَهَؤُلَاءِ يُثَابُونَ.

وَتَارَةٌ تُرْبَطُ فَخْرًا وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَزُر.

وَتَارَةٌ لِلتَّعَفُّفِ وَاقْتِنَاءِ نَسْلِهَا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا، فَهَذِهِ  
لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ، كَمَا سَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ

عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَأَمَّا ﴿الْمُسَوِّمَةُ﴾ فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا الْمُسَوِّمَةُ  
الرَّاعِيَّةُ، وَالْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانِ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ  
جُبَيْرٍ، وَغَيْرِهِمْ.

وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْمُسَوِّمَةُ: الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدِّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ) (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْأَنْعَمِ﴾ يَعْنِي: الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ ﴿وَالْحَرْثِ﴾ يَعْنِي: الْأَرْضَ الْمُتَّخِذَةَ لِلْغِرَاسِ وَالزَّرَاعَةِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُوَيْدِ بْنِ هُبَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (خَيْرُ مَالٍ أَمْرِي لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ) (٢).

وَالْمُهْرَةُ الْمَأْمُورَةُ الْكَثِيرَةُ النَّسْلِ، وَالسِّكَّةُ: النَّخْلُ الْمُصْطَفَى، وَالْمَأْبُورَةُ: الْمُلْقَحَةُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: إِنَّمَا هَذَا زَهْرَةٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيْتَتُهَا الْفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ أَي: حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالْثَوَابِ.

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٩٧) والحاكم (٩٢ / ٢) مرفوعاً، ولعل الصواب أنه موقوف على أبي ذر من قوله.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٤٥)، وإسناده ضعيف.



﴿قُلْ أُوْنَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ: أَأَخْبِرُكُمْ بِخَيْرٍ مِّمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا، الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا مَحَالَةَ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: تَنْخَرِقُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا الْأَنْهَارُ، مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرِبَةِ؛ مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ وَالْخَمْرِ وَالْمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: مَا كَثِينَ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَادِ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا.

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أَي: مِنَ الدَّنَسِ، وَالخَبَثِ، وَالْأَذَى، وَالْحَيْضِ، وَالنَّفَاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْتَرِي نِسَاءَ الدُّنْيَا. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أَي: يُحِلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانَهُ، فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ أَبَدًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي فِي بَرَاءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أَي: أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أَي: يُعْطِي كُلًّا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾.

يَصِفُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا﴾ أَي: بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ ﴿فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَي بِإِيمَانِنَا بِكَ وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَتَقْصِرْنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أَي: فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِمَا يَلْتَزِمُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ وَالْقُنُوتِ: الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أَي: مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَصِلَةَ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ، وَسَدِّ الْخَلَّاتِ، وَمُؤَاَسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ.

وَقَدْ دَلَّ هَذَا عَلَى فَضِيلَةِ الْإِسْتِغْفَارِ وَقْتِ الْأَسْحَارِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لِبَنِيهِ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] أَنَّهُ أَخْرَجَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ.

وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ، مِنْ غَيْرِ  
وَجْهِ، عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يَنْزِلُ اللَّهُ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ  
الْآخِرِ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ  
مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأُغْفِرَ لَهُ؟) (١).

وَقَدْ أَفْرَدَ الْحَافِظُ أَبُو الْحَسَنِ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي ذَلِكَ جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ  
فَرَوَاهُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ  
قَدْ أوترَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ أَوْلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَانْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى  
السَّحَرِ (٢).

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا نَافِعُ، هَلْ جَاءَ  
السَّحَرُ؟ فإِذَا قَالَ: نَعَمْ، أَقْبَلَ عَلَى الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ حَتَّى يُصْبِحَ. رَوَاهُ  
ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٣).

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٦) ومسلم (٧٤٥).

(٣) (٦١٦/٢)، ورواه الطبري أيضًا (٢٧٤/٥).

وروى ابن جرير عن إبراهيم بن حاطب، عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: رب أمرني فأطعتك، وهذا سحرٌ، فاغفر لي. فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة<sup>(٢)</sup>.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ

عِنْدَ اللَّهِ لَا يُسَلَّمُونَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ

اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ

وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ

(١) رواه الطبري (٥/ ٢٧٤) وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٠)

(٢) رواه الطبري (٥/ ٢٧٥).

ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

عَلَيْكَ الْبَلْغُ <sup>ط</sup> وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ .

شَهِدَ تَعَالَى وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا، وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ وَأَعْدَلُهُمْ،  
وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: المتفرد بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ  
الْخَلَائِقِ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ وَخَلْقُهُ، وَالْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ  
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ثُمَّ قَرَنَ شَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ وَأُولِي الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ فَقَالَ: ﴿شَهِدَ  
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ  
لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، وَهُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ  
كَذَلِكَ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾  
الْعَزِيزُ: الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ عَظَمَةً وَكِبْرِيَاءً، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ  
وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ إِبْرَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرَّسْلِ فِي مَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ، حَتَّى خْتَمُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي سَدَّ جَمِيعَ الطُّرُقِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بَعَثْتِهِ مُحَمَّدًا ﷺ بَدِينٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ، فَلَيْسَ بِمُتَقَبَّلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَأَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِانْحِصَارِ الدِّينِ الْمُتَقَبَّلِ عِنْدَهُ فِي الْإِسْلَامِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الدِّينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ إِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، بِإِرْسَالِ الرَّسْلِ إِلَيْهِمْ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أَي: بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَاخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ، فَحَمَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ الْبَعْضِ الْآخِرِ عَلَى مُخَالَفَتِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿أَي: مَنْ جَحَدَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ، وَيُحَاسِبُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَيُعَاقِبُهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ كِتَابَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ ﴿أَي: جَادُلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ﴾ ﴿فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ ﴿أَي: فَقُلْ أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ﴾ ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ ﴿عَلَى دِينِي يَقُولُ كَمَا قَالَتِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴾ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبَّحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَدِينِهِ وَالدُّخُولِ فِي شَرْعِهِ وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ الْكِتَابِيِّينَ مِنَ الْمَلْتِينَ وَالْأُمِّيِّينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ ﴿أَي: وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْبَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ:﴾ ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿أَي: هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالََةَ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا مَنْ أَصْرَحَ الدَّلَالَاتِ عَلَى عُمُومِ بَعْثِهِ، صَلَوَاتِ  
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِهِ ضَرُورَةً، وَكَمَا  
دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ وَحَدِيثٍ.

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ  
جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ  
لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا ثَبَتَ تَوَاتُرُهُ بِالْوَقَائِعِ الْمُتَعَدِّدَةِ: أَنَّهُ  
بَعَثَ كُتُبَهُ ﷺ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مُلُوكَ الْأَفَاقِ، وَطَوَائِفَ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبِهِمْ  
وَعَجَمِهِمْ، كِتَابِيهِمْ وَأُمَّيِّهِمْ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ (١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ  
بِي أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ  
بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنَ أَهْلِ النَّارِ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢).

(١) أخرج البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) كتابه ﷺ إلى هرقل. وأخرج مسلم (١٧٧٤)  
عن أنس: أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار  
يدعوهم إلى الله تعالى.

(٢) برقم (١٥٣).



وَقَالَ ﷺ: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) وَقَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) (١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَضَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَضُوءَهُ وَيُنَاوِلُهُ نَعْلَيْهِ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَبُوهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (يَا فُلَانُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَسَكَتَ أَبُوهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطِعَ أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ (٢).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٦٤) من حديث جابر. والشطر الأول عند مسلم (٥٢١) بنحوه، والثاني عند البخاري (٣٣٥).

(٢) برقم (١٣٥٦)، وهذا لفظ أحمد (١٢٧٩٢).

## حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ

### تَصْرِيحٍ ﴿٢٢﴾

هَذَا ذِمٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ فِي تَكْذِيبِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، الَّتِي بَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهَا الرُّسُلُ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ وَعِنَادًا لَهُمْ، وَتَعَاظُمًا عَلَى الْحَقِّ وَاسْتِنْكَافًا عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَمَعَ هَذَا قَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِينَ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ، بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا جَرِيْمَةٍ، إِلَّا لِكَوْنِهِمْ دَعَوْهُمْ إِلَى الْحَقِّ، ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْكِبْرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (الْكِبْرُ بَطْرٌ بِالْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ) (١).

وَلِهَذَا لَمَّا أَنْ تَكَبَّرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْحَقِّ وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْخَلْقِ، قَابَلَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِالذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَي: مُوجِعٍ مُهِينٍ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْرِيحٍ﴾.

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ

اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ

﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ

وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا

جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوَفَّيْتِ كُلَّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الْمُتَمَسِّكِينَ فِيمَا يَزْعُمُونَ  
بِكِتَابَيْهِمُ الَّذِينَ بِأَيْدِيهِمْ، وَهُمَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى التَّحَاكُمِ  
إِلَى مَا فِيهِمَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِيهِمَا، مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، تَوَلَّوْا  
وَهُمْ مُّعْرِضُونَ عَنْهُمَا، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنْ ذَمِّهِمُ وَالتَّنْوِيهِ بِذِكْرِهِمْ  
بِالْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أَي: إِنَّمَا  
حَمَلَهُمْ وَجَرَّاهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْحَقِّ افْتِرَاؤُهُمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ

لَأَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُعَذِّبُونَ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ: عَنْ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الدُّنْيَا  
يَوْمًا! وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ❖ أَيُّ: ثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ  
الْبَاطِلِ مَا خَدَعُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِلَّا  
أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَهُمْ الَّذِينَ افْتَرَوْا هَذَا مِنْ تَلْقَاءِ أَنفُسِهِمْ وَافْتَعَلُوهُ، وَلَمْ  
يُنزِلِ اللَّهُ بِهِ سُلْطَانًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُهَدِّدًا لَهُمْ وَمُنَوِّعًا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ  
فِيهِ﴾ ❖ أَيُّ: كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَقَدْ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ وَقَتَلُوا  
أَنْبِيَاءَهُ وَالْعُلَمَاءَ مِنْ قَوْمِهِمُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاللَّهُ  
تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ، وَمَجَازِيهِمْ بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ❖ لَا شَكَّ فِي وُقُوعِهِ وَكَوْنِهِ ﴿وَوُفِّيَتْ  
كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ❖ .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ

مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ

تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ .

يُقُولُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّدُ، مُعْظَمًا لِرَبِّكَ وَمُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ، وَشَاكِرًا لَهُ وَمُفَوَّضًا إِلَيْهِ: ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أَي: لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ﴿تَوَتَّى الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أَي: أَنْتَ الْمُعْطِي، وَأَنْتَ الْمَانِعُ، وَأَنْتَ الَّذِي مَا شِئْتَ كَانَ وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهُ وَإِرْشَادٌ إِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَوَّلَ الشُّبُهَةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرْشِيِّ الْمَكِّيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَرَسُولِ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ مَحَاسِنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَخَصَّهُ بِخَصَائِصٍ لَمْ يُعْطَهَا نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ، فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ وَإِطْلَاعِهِ عَلَى الْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَكَشْفِهِ عَنِ حَقَائِقِ الْآخِرَةِ وَنَشْرِ أُمَّتِهِ فِي الْآفَاقِ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَشَرَعِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءِ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءِ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: أَنْتَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِكَ، الْفَعَالُ لِمَا تُرِيدُ، كَمَا رَدَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى مَنْ يَتَحَكَّمُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] أَي: نَحْنُ نَتَصَرَّفُ فِي خَلْقِنَا كَمَا نُرِيدُ، بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ، وَلَنَا الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا نُعْطِي النَّبِيَّةَ لِمَنْ نُرِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَي: تَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَتَزِيدُهُ فِي قِصَرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ تَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَتَفَاوَتَانِ ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ. وَهَكَذَا فِي فُصُولِ السَّنَةِ: رَبِيعًا وَصَيْفًا وَخَرِيفًا وَشِتَاءً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَي: تُخْرِجُ الْحَبَّةَ مِنَ الزَّرْعِ وَالزَّرْعَ مِنَ الْحَبَّةِ، وَالنَّخْلَةَ مِنَ النَّوَاةِ وَالنَّوَاةَ مِنَ النَّخْلَةِ،

وَالدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ. ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَي: تُعْطِي مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يُعْدهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْصَائِهِ، وَتَقْتَرُ عَلَى آخِرِينَ، لِمَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْعَدْلِ.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ

يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ

تَقَةً وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ .

نَهَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أَي: مَنْ يَرْتَكِبْ نَهْيَ اللَّهِ فِي هَذَا فَقَدْ بَرِيَ مِنَ اللَّهِ كَمَا قَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُنْخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُنْخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]،

وَقَالَ تَعَالَى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ﴾ [المتحنة: ١] إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ،  
وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُوَآلَاةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ  
وَالْأَعْرَابِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ؕ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي  
الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ ﴿أَي: إِلَّا مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ  
الْبُلْدَانِ أَوْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ، فَلَهُ أَنْ يَتَّقِيَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِبَاطِنِهِ  
وَنِيَّتِهِ، كَمَا حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ  
أَقْوَامٍ وَقُلُوبِنَا تَلْعَنُهُمْ) (١).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّمَا التَّقِيَةُ بِاللِّسَانِ، وَكَذَا قَالَ أَبُو  
الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ. وَيُؤَيَّدُ مَا قَالُوهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ  
بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ  
صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ﴿أَي: يُحَذِّرُكُمْ نِقْمَتَهُ فِي  
مُخَالَفَتِهِ، وَسَطْوَتَهُ فِي عَذَابِهِ لِمَنْ وَالَىٰ أَعْدَاءَهُ وَعَادَىٰ أَوْلِيَاءَهُ.

(١) علَّقه البخاري في «صحيحه» (كتاب الأدب/ باب المداراة مع الناس).



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أَي: إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ

سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ

نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠).

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ وَالظُّوَاهِرَ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْآنَاءِ وَاللَّحْظَاتِ وَالْأَوْقَاتِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ، وَهُوَ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ.

وَهَذَا تَنْبِيهُ مِنْهُ لِعِبَادِهِ عَلَى خَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ، وَالْأَيُّ تَرْكِبُوا مَا نَهَى عَنْهُ  
وَمَا يَبْغِضُهُ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مُعَاجَلَتِهِمْ  
بِالْعُقُوبَةِ، وَإِنْ أَنْظَرَ مَنْ أَنْظَرَ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يُمْهِلُ ثُمَّ يَأْخُذُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ؛

وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا  
عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ \* يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْضَرُ  
لِلْعَبْدِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُبَوِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَاقِمًا  
وَأَخْرَجَ [القيامة: ١٣]، فَمَا رَأَى مِنْ أَعْمَالِهِ حَسَنًا سَرَّهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ، وَمَا رَأَى  
مِنْ قَبِيحٍ سَاءَهُ وَغَاطَهُ، وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ، كَمَا  
يَقُولُ لِشَيْطَانِهِ الَّذِي كَانَ مُقْتَرِنًا بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي جَرَّاهُ عَلَى فِعْلِ  
السُّوءِ: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنَ الْقَرِينُ﴾ \* [الزخرف: ٣٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا وَمُهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ \* أَيُّ:  
يُخَوِّفُكُمْ عِقَابَهُ، ثُمَّ قَالَ مُرَجِّيًا لِعِبَادِهِ لِيَلَّا يَبْأَسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَقْنَطُوا مَنْ  
لُطْفِهِ: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ \* أَيُّ: رَحِيمٌ بِخَلْقِهِ، يُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَقِيمُوا  
عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ وَدِينِهِ الْقَوِيمِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ الْكَرِيمَ. قَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ حَذَّرَهُمْ نَفْسَهُ.

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣١)

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢)

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ وَالِدِينَ النَّبِيِّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) (١).

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أَي: يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُحَبَّ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ:

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨/١٨) - واللفظ له - من حديث عائشة.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آي: بِاتِّبَاعِكُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ يَحْصُلُ لَكُمْ هَذَا كُلُّهُ بِبِرَّةِ سَفَارَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ أَمْرًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصِّ وَعَامٍّ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط  
فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ آي: خَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ كُفْرٌ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ، وَإِنْ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ، وَرَسُولَ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ - بَلِ لَوْ كَانَ الْمُرْسَلُونَ، بَلِ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنْهُمْ - فِي زَمَانِهِ لَمَا وَسَعَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعُهُ، وَالذُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى

الْعَالَمِينَ﴾ ٣٣ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٣٤ .

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبُيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَاصْطَفَى آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ،

وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ ثُمَّ  
أَهْبَطَهُ مِنْهَا، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ.

وَاصْطَفَى نُوحًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ  
الْأَرْضِ، لَمَّا عَبَدَ النَّاسُ الْأَوْثَانَ، وَأَشْرَكُوا فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ  
سُلْطَانًا، وَانْتَقَمَ لَهُ لَمَّا طَالَتْ مُدَّتُهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لَيْلًا  
وَنَهَارًا، سِرًّا وَجَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَغْرَقَهُمُ اللَّهُ  
عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ.

وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ: سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى  
الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَاصْطَفَى آلَ عِمْرَانَ، وَالْمُرَادُ بِعِمْرَانَ هَذَا: هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، أُمَّ  
عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۗ ﴾

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۗ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي

أَعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ .

امْرَأَةٌ عِمْرَانَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَهِيَ حَنَّةُ  
 بِنْتُ فَاوُودَ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ امْرَأَةً لَا تَحْمِلُ، فَرَأَتْ يَوْمًا  
 طَائِرًا يَزُقُّ فَرْخَهُ (أَيِ يُطْعِمُهُ) فَاشْتَهَتْ الْوَلَدَ، فَدَعَتْ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ  
 يَهَبَهَا وَلَدًا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا، فَوَاقَعَهَا زَوْجُهَا، فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَلَمَّا  
 تَحَقَّقَتِ الْحَمْلَ نَذَرَتْهُ أَنْ يَكُونَ ﴿مُحَرَّرًا﴾ أَي: خَالِصًا مُفْرَغًا لِلْعِبَادَةِ،  
 وَلِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ  
 مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ لِدُعَائِي، الْعَلِيمُ بِنِيَّتِي، وَلَمْ  
 تَكُنْ تَعْلَمُ مَا فِي بَطْنِهَا أَذْكَرًا أَمْ أُنْثَى. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى  
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ أَي: فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلْدِ فِي الْعِبَادَةِ  
 وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ كَمَا  
 هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ؛ لِأَنَّهُ شَرَعُ مِنْ قَبْلُنَا وَقَدْ حُكِيَ مُقَرَّرًا، وَبِذَلِكَ ثَبَّتِ  
 السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: (وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي  
 إِبْرَاهِيمَ). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١).

(١) جزء من حديث أنس عند مسلم (٢٣١٥)، والحديث في البخاري (١٣٠٣) دون هذه  
 الفقرة.

وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِيهِمَا أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ذَهَبَ بِأَخِيهِ، حِينَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَنَنَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وُلِدَ لِي وَلَدٌ، فَمَا أُسَمِّيهِ؟ قَالَ: (أَسْمِ وَلَدَكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ)<sup>(٢)</sup>. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُ أَبُو أُسَيْدٍ بِابْنِهِ لِيُحَنِّكَه، فَذَهَلَ عَنْهُ، فَأَمَرَ بِهِ أَبُوهُ فَرَدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِمْ، فَلَمَّا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ سَمَّاهُ الْمُنْدِرَ<sup>(٣)</sup>.

فَأَمَّا حَدِيثُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (كُلُّ غُلَامٍ رَهِينٌ بِعَقِيْقَتِهِ، يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّى وَيُحَلَّقُ رَأْسُهُ). فَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ<sup>(٤)</sup>، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَيُرْوَى: «وَيُدَمَّى»<sup>(٥)</sup>، وَهُوَ أَثْبَتُ وَأَحْفَظُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) البخاري (٥٤٧٠) ومسلم (٢١٤٤).

(٢) البخاري (٦١٨٦، ٦١٨٩) ومسلم (٢١٣٣).

(٣) البخاري (٦١٩١) ومسلم (٢١٤٩).

(٤) أحمد (٢٠١٣٩) وأبو داود (٢٨٣٨) والترمذي (١٥٢٢) والنسائي (٤٢٢٠) وابن ماجه (٣١٦٥).

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٠٨٣) وأبو داود (٢٨٣٧) من طريق همّام عن قتادة عن الحسن به.

قال أبو داود: «خولف همّام في هذا الكلام، وهو وهم من همّام، وإنما قالوا: (يسمى) فقال همّام: (يدمى)، وليس يؤخذ بهذا».

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ أُمِّ مَرْيَمَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِيكَ وَذُرِّيَّتَهَا  
مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أَي: عَوَّذْتُهَا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ،  
وَعَوَّذْتُ ذُرِّيَّتَهَا، وَهُوَ وَلَدُهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهَا  
ذَلِكَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ  
حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا)، ثُمَّ يَقُولُ  
أَبُو هُرَيْرَةَ: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِيكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ  
الرَّجِيمِ﴾ أَخْرَجَهُ البخاري ومسلم (١).

﴿فَنَقَّبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا  
زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ  
يَمْرَيْمُ أَنَّى لِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

(١) البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦).



يُخْبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمَّهَا نَذِيرَةً، وَأَنَّهُ ﴿أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ﴿أَي: جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيجًا، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقَبُولِ، وَقَرَنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ تَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ وَالدِّينَ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ﴿وَفِي قِرَاءَةِ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ وَنَصْبِ زَكَرِيَّا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ، أَي جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهَُا كَانَتْ يَتِيمَةً.

وَإِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ كَوْنَ زَكَرِيَّا كَافِلَهَا لِسَعَادَتِهَا، لِتَقْتَبَسَ مِنْهُ عِلْمًا جَمًّا نَافِعًا وَعَمَلًا صَالِحًا؛ وَلِأَنَّهُ كَانَ زَوْجَ خَالَتِهَا، عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ: زَوْجُ أُخْتِهَا، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: (فَإِذَا بِيحْيَى وَعَيْسَى، وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ) (١) وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ ذَلِكَ أَيْضًا تَوْسَعًا، فَعَلَى هَذَا كَانَتْ فِي حَضَانَةِ خَالَتِهَا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى فِي عِمَارَةَ بِنْتِ حَمْزَةَ أَنَّ تَكُونَ فِي حَضَانَةِ خَالَتِهَا امْرَأَةً جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ: (الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ) (٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) في حديث المعراج الطويل..

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البراء في عمرة القضاء، وأما مسلم (١٧٨٣) فعنده أصل الحديث دون هذه الفقرة.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَيَادَتِهَا وَجَلَالَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا، فَقَالَ: ﴿كَلِمًا  
دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ  
بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي وَجَدَ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي  
الصَّيْفِ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أَي: عِلْمًا، أَوْ قَالَ: صُحُفًا فِيهَا  
عِلْمٌ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ. وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى كَرَامَاتِ  
الْأَوْلِيَاءِ. وَفِي السُّنَّةِ لِهَذَا نِظَائِرٌ كَثِيرَةٌ.

فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أَي: يَقُولُ مِنْ  
أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً

طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ الْمَلْتِيكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا

وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عِلْمٌ

وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأُمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

النَّاسِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَاذْكُر رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ

## وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْزُقُ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - فَآكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، طَمَعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ضَعُفَ وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ، وَاشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءً خَفِيًّا، وَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴿٤١﴾ أَيُّ: مِنْ عِنْدِكَ ﴿٤١﴾ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴿٤١﴾ أَيُّ: وَلَدًا صَالِحًا ﴿٤١﴾ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤١﴾.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴿٤١﴾ أَيُّ: خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ شِفَاهًا خِطَابًا أَسْمَعْتَهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابٍ عِبَادَتِهِ وَمَحَلِّ خَلْوَتِهِ وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ وَصَلَاتِهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا بَشَّرَتْهُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴿٤١﴾ أَيُّ: بِوَلَدٍ يُوجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴿٤١﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴿٤١﴾ أَيُّ: بِعِيسَى ابْنِ

مَرِيَمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: سَيِّدًا فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالثَّوْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ: السَّيِّدُ الْحَكِيمُ الْمُتَّقِي. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الشَّرِيفُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَصُورًا﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، أَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ الَّذِي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ. وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: هُوَ الَّذِي لَا يُوَلِّدُهُ.

وَقَدْ قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ فِي كِتَابِهِ الشِّفَاءِ: اَعْلَمَ أَنَّ ثَنَاءَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَحْيَى أَنَّهُ كَانَ ﴿وَحَصُورًا﴾ لَيْسَ كَمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ هَيُوبًا، أَوْ لَا ذَكَرَ لَهُ، بَلْ قَدْ أَنْكَرَ هَذَا حُدَّاقُ الْمُفَسِّرِينَ وَتُقَادُ الْعُلَمَاءِ، وَقَالُوا: هَذِهِ نَقِيصَةٌ وَعَيْبٌ وَلَا تَلِيْقُ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ، أَيْ لَا يَأْتِيهَا كَأَنَّهُ حُصِرَ عَنْهَا، وَقِيلَ: مَا نَعَا نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ. وَقِيلَ: لَيْسَتْ لَهُ شَهْوَةٌ فِي النِّسَاءِ.

وَقَدْ بَانَ لَكَ مِنْ هَذَا أَنَّ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى النِّكَاحِ نَقْصٌ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِي كَوْنِهَا مَوْجُودَةً ثُمَّ قَمِعَهَا: إِمَّا بِمُجَاهَدَةٍ كَعِيسَى، أَوْ بِكِفَايَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كِيَحْيَى. ثُمَّ هِيَ فِي حَقِّ مَنْ أُقْدِرَ عَلَيْهَا وَقَامَ بِالْوَاجِبِ فِيهَا وَلَمْ تَشْغَلْهُ عَنْ رَبِّهِ دَرَجَةٌ عَلِيَاءُ، وَهِيَ دَرَجَةٌ نَبِيًّا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي لَمْ

يَشْغَلُهُ كَثْرَتُهُنَّ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ عِبَادَةً، بِتَحْصِينِهِنَّ وَقِيَامِهِ عَلَيْهِنَّ، وَاکْتِسَابِهِ لِهِنَّ، وَهَدَايَتِهِ إِيَّاهُنَّ (١).

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ مَدَحٌ يَحْيَى بِأَنَّهُ حَاضِرٌ، لَيْسَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، بَلْ مَعْنَاهُ كَمَا قَالَ هُوَ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُ مَعْصُومٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْقَادُورَاتِ، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ تَزْوِجِهِ بِالنِّسَاءِ الْحَلَالِ وَعَشْيَانِهِنَّ وَإِيلَادِهِنَّ، بَلْ قَدْ يُفْهَمُ وُجُودُ النَّسْلِ لَهُ مِنْ دُعَاءِ زَكَرِيَّا الْمُتَقَدِّمِ حَيْثُ قَالَ: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَدًا لَهُ ذُرِّيَّةٌ وَنَسْلٌ وَعَقِبٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ ثَانِيَةٌ بِنُبُوَّةِ يَحْيَى بَعْدَ الْبَشَارَةِ بِوِلَادَتِهِ، وَهِيَ أَعْلَى مِنَ الْأُولَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِأُمِّ مُوسَى: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

فَلَمَّا تَحَقَّقَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْبَشَارَةَ أَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ وُجُودِ الْوَالِدِ مِنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أَيِ فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيِ: هَكَذَا أَمْرُ اللَّهِ عَظِيمٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَتَعَاظَمُهُ أَمْرٌ. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَيِ:

(١) هنا انتهى النقل من «الشفاء».

عَلَامَةٌ أُنْتَدِلُ بِهَا عَلَىٰ وُجُودِ الْوَلَدِ مِنِّي ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ  
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ أَيُّ: لَا تَسْتَطِيعُ النُّطْقَ، مَعَ أَنَّكَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ، كَمَا فِي  
قَوْلِهِ: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

ثُمَّ أَمَرَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَقَالَ: ﴿وَاذْكُرْ  
رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ . وَسَيَأْتِي طَرْفٌ آخَرُ فِي بَسْطِ  
هَذَا الْمَقَامِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ مَرْيَمَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ

وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أُنْبَاءِ الْغَيْبِ

نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ

يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ .

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَأِكَةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ  
عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُمْ بِذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ قَدِ اصْطَفَاهَا، أَيُّ: اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا  
وَزَهَادَتِهَا وَشَرَفِهَا وَطَهْرِهَا مِنَ الْأَكْدَارِ وَالْوَسَاوِسِ، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً  
بَعْدَ مَرَّةٍ لِحَبْلَاتِهَا عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (قَالَ حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ). تَفَرَّدَ بِهِ التِّرْمِذِيُّ (٢) وَصَحَّحَهُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كَمُلْ مِنَ الرَّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٣).

وَقَدْ اسْتَقْصَيْتُ طُرُقَ هَذَا الْحَدِيثِ وَأَفَاطَهُ فِي قِصَّةِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي كِتَابِنَا: «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ أَمْرُوهَا بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالسُّجُودِ وَالرُّكُوعِ وَالذُّؤُوبِ فِي الْعَمَلِ، لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى

(١) البخاري (٣٤٣٢، ٣٨١٥) ومسلم (٢٤٣٠).

(٢) رقم (٣٨٧٨). وصححه أيضًا ابن حبان (٧٠٠٣).

(٣) البخاري (٣٤١١، ٣٤٣٣، ٣٧٦٩) ومسلم (٢٤٣١).

بِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، مِمَّا فِيهِ مِحْنَةٌ لَهَا وَرِفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ، بِمَا أَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، حَيْثُ خَلَقَ مِنْهَا وَلَدًا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْرِيُمْ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وَالْقُنُوتُ هُوَ الطَّاعَةُ فِي خُشُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونٌ﴾ [البقرة: ١١٦].

﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَي: كوني منهم. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: رَكَدَتْ فِي مِحْرَابِهَا رَاكِعَةً وَسَاجِدَةً وَقَائِمَةً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالسَّلَامِ - بَعْدَمَا أَطْلَعَهُ عَلَى جَلِيَّةِ الْأَمْرِ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أَي: نَقَضَهُ عَلَيْكَ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أَي: مَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ فَتُخْبِرُهُمْ عَنْهُمْ مُعَايِنَةً عَمَّا جَرَى، بَلْ أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ كَأَنَّكَ كُنْتَ حَاضِرًا وَشَاهِدًا لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حِينَ اقْتَرَعُوا فِي شَأْنِ مَرِيْمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا، وَذَلِكَ لِرَغْبَتِهِمْ فِي الْأَجْرِ.

وروى ابن جرير عن عكرمة قال: ثُمَّ خَرَجَتْ بِهَا - يَعْنِي خَرَجَتْ أُمَّ مَرِيْمَ بِمَرِيْمَ - تَحْمِلُهَا فِي خَرَقِهَا إِلَى بَنِي هَارُونَ أَخِي مُوسَى، عَلَيْهِمَا



السَّلَام، فَقَالَتْ لَهُمْ: دُونَكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَةُ فَإِنِّي حَرَزْتُهَا وَهِيَ ابْنَتِي، وَأَنَا لَا أَرُدُّهَا إِلَيَّ بَيْتِي، فَقَالُوا هَذِهِ ابْنَةُ إِمَامِنَا - وَكَانَ عِمْرَانُ يُؤْمِنُهُمْ فِي الصَّلَاةِ - فَقَالَ زَكَرِيَّا: اذْفَعُوهَا إِلَيَّ: فَإِنَّ خَالَتَهَا تَحْتِي. فَقَالُوا: لَا تَطِيبُ أَنْفُسَنَا، هِيَ ابْنَةُ إِمَامِنَا فَذَلِكَ حِينَ اقْتَرَعُوا بِأَقْلَامِهِمْ عَلَيْهَا الَّتِي يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ، فَفَرَعَهُمْ زَكَرِيَّا، فَكَفَلَهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ أَنََّّهُمْ دَخَلُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ وَاقْتَرَعُوا هُنَالِكَ عَلَى أَنْ يُلْقُوا أَقْلَامَهُمْ فِيهِ فَأَيُّهُمْ ثَبَتَ فِي جَرِيَةِ الْمَاءِ فَهُوَ كَافِلُهَا، فَالْقُوا أَقْلَامَهُمْ فَاحْتَمَلَهَا الْمَاءُ إِلَّا قَلَمَ زَكَرِيَّا ثَبَتَ، وَكَانَ زَكَرِيَّا كَبِيرَهُمْ وَسَيِّدَهُمْ، وَعَالِمَهُمْ وَإِمَامَهُمْ وَنَبِيَّهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ.

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ

مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا

وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ

يَمَسِّنِي بَشْرًا قَالُ كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

هَذِهِ بَشَارَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ، عَلَيْهَا السَّلَامُ، بِأَنْ سَيُوجَدُ مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ، لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللهُ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أَي: بِوَلَدٍ يَكُونُ وَجُودُهُ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ، أَي: بِقَوْلِهِ لَهُ: «كُنْ» فَيَكُونُ، وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ﴾ كَمَا ذَكَرَهُ الْجُمْهُورُ. ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أَي: يَكُونُ مَشْهُورًا بِهَذَا فِي الدُّنْيَا، يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ.

وَسُمِّيَ الْمَسِيحُ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِكَثْرَةِ سِيَاحَتِهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ مَسِيحَ الْقَدَمَيْنِ: أَي لَا أَحْمَصَ لَهُمَا. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا مَسَحَ أَحَدًا مِّنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ بَرِيءًا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نِسْبَةٌ لَهُ إِلَى أُمِّهِ، حَيْثُ لَا أَبَ لَهُ، ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أَي: لَهُ وَجَاهَةٌ وَمَكَانَةٌ عِنْدَ اللهِ فِي الدُّنْيَا، بِمَا يُوحِيهِ اللهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَيُنزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا مَنَحَهُ

بِهِ، وَفِي الدَّارِ الآخِرَةِ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِيمَنْ يَأْذَنُ لَهُ فِيهِ، فَيَقْبَلُ مِنْهُ، أُسْوَةً  
بِإِخْوَانِهِ مِنْ أَوْلِي العِزْمِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَي: يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ  
وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فِي حَالِ صِغَرِهِ، مُعْجِزَةً وَآيَةً، وَفِي حَالِ كُهُولَتِهِ حِينَ  
يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَي: فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، لَهُ عِلْمٌ  
صَحِيحٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ،  
عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي زَمَنِ جُرَيْجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرُ) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ  
وَمُسْلِمٌ (١).

فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرِيَمَ بِبَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهَا بِذَلِكَ، عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،  
قَالَتْ فِي مُنَاجَاتِهَا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تَقُولُ: كَيْفَ  
يُوجَدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي وَأَنَا لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ،  
وَلَسْتُ بِغِيًّا - حَاشَا لِلَّهِ - ؟ فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَوَابِ  
هَذَا السُّؤَالِ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: هَكَذَا أَمَرَ اللَّهُ عَظِيمٌ، لَا  
يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. وَصَرَخَ هَاهُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿يَخْلُقُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: ﴿يَفْعَلُ﴾ كَمَا

(١) البخاري (٣٤٣٦) ومسلم (٢٥٥٠).

فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا، بَلْ نَصَّ هَاهُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ؛ لِئَلَّا يَبْقَى شُبُهَةٌ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٠﴾ أَي: فَلَا يَتَأَخَّرُ شَيْئًا، بَلْ يُوجَدُ عَقِيبَ الْأَمْرِ بِلَا مُهْلَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَجٍ بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠] أَي: إِنَّمَا نَأْمُرُ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا مَشَوِيَّةَ فِيهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ سَرِيعًا كَلَمَجٍ بِالْبَصْرِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي

الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ

مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لِّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي

وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَامِ بَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِابْنِهَا عِيسَى عَلَيْهِ  
السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُهُ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ  
هَاهُنَا الْكِتَابَةُ. وَالْحِكْمَةُ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ التَّوْرَةُ: هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى  
بْنِ عِمْرَانَ، وَالْإِنْجِيلُ: الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَدْ كَانَ  
عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْفَظُ هَذَا وَهَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَي: وَيَجْعَلُهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي  
إِسْرَائِيلَ، قَائِلًا لَهُمْ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ  
الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ:  
يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَطِيرُ عَيْنَانًا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،  
الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجِزَةً يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ.

﴿وَأَبْرِيءُ الْأَكْمَةِ﴾ قِيلَ: هُوَ الَّذِي يُبْصِرُ نَهَارًا وَلَا يُبْصِرُ لَيْلًا.  
وَقِيلَ بِالْعَكْسِ. وَقِيلَ: هُوَ الْأَعْمَى. وَقِيلَ: الْأَعْمَشُ. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يُوَلِّدُ  
أَعْمَى، وَهُوَ أَشْبَهُهُ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَعْجِزَةِ وَأَقْوَى فِي التَّحَدِّيِّ،  
﴿وَالْأَبْرَصُ﴾ معروف.

﴿وَأَحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: بَعَثَ اللَّهُ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِمُعْجَزَةٍ تُنَاسِبُ أَهْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ الْغَالِبُ عَلَىٰ زَمَانِ مُوسَىٰ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، السِّحْرَ وَتَعْظِيمَ السَّحَرَةِ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ بِمُعْجَزَةٍ بَهَرَتِ الْأَبْصَارَ وَحَيْرَتِ كُلَّ سَحَّارٍ، فَلَمَّا اسْتَيْقَنُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ انْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ، وَصَارُوا مِنَ الْأَبْرَارِ.

وَأَمَّا عَيْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فُبُعِثَ فِي زَمَنِ الْأَطِبَّاءِ وَأَصْحَابِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، فَجَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ الَّذِي شَرَعَ الشَّرِيعَةَ. فَمِنْ أَيْنَ لِلطَّبِيبِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْجَمَادِ، أَوْ عَلَىٰ مَدَاوَاةِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وَبُعِثَ مَنْ هُوَ فِي قَبْرِهِ رَهِينٌ إِلَىٰ يَوْمِ التَّنَادِ؟ وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي زَمَنِ الْفُصَحَاءِ وَالْبُلْغَاءِ وَنَحَارِيرِ الشُّعْرَاءِ، فَآتَاهُمْ بِكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، أَوْ بَعْشِرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَبَدًا، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ لَا يُشْبِهُهُ كَلَامَ الْخَلْقِ أَبَدًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أَي: أَخْبَرْتُكُمْ بِمَا أَكَلْتُمْ الْآنَ، وَمَا هُوَ مُدْخِرٌ لَهُ فِي بَيْتِهِ لِعَدِهِ. ﴿إِنْ﴾

فِي ذَلِكَ ﴿أَيُّ: فِي ذَلِكَ كُلِّهِ﴾ ﴿لَايَةً لَكُمْ﴾ ﴿أَيُّ: عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ.﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ ﴿أَيُّ: أَنَّهُ مُقَرَّرٌ لَهَا وَمُثَبَّتٌ،﴾ ﴿وَلِأَحَدٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَسَخَ بَعْضَ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلَيْنِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: لَمْ يَنْسَخْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَحَلَّ لَهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ فَأَخْطَؤُوا، فَكَشَفَ لَهُمْ عَنِ الْمُغْطَى فِي ذَلِكَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:﴾ ﴿وَلِأَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿أَيُّ: بِحُجَّةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَقُولُهُ لَكُمْ.﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ﴿أَيُّ: أَنَا وَأَنْتُمْ سِوَاءٌ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ﴾ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا

**مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ**  
**فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ**  
**وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ .**

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾ أَي: اسْتَشْعَرَ مِنْهُمْ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِمْرَارَ عَلَى الضَّلَالِ قَالَ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ: مَنْ أَنْصَارِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ؟ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ: (مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي عَلَى أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟ فَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي) (١) حَتَّى وَجَدَ الْأَنْصَارَ فَأَوَّوهُ وَنَصَرُوهُ، وَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ فَاسَّوَّهُ وَمَنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ. وَهَكَذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، انْتَدَبَ لَهُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَمَّنُوا بِهِ وَأَزْرَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿قَالَ الْخَوَارِجِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ

(١) أخرجه أحمد (١٥١٩٢) وأبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) من حديث جابر.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.



الشَّهِيدِ ﴿؟﴾ الْحَوَارِيُّونَ، قِيلَ: كَانُوا قَصَّارِينَ <sup>(١)</sup>، وَقِيلَ: سُمُّوا  
بِذَلِكَ لِبَيَاضِ ثِيَابِهِمْ، وَقِيلَ: صَيَّادِينَ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحَوَارِيَّ النَّاصِرُ،  
كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَدَبَ النَّاسَ يَوْمَ  
الْأَحْزَابِ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ  
الزُّبَيْرُ، فَقَالَ: (إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّيَ الزُّبَيْرِ) <sup>(٢)</sup>.

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ  
الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ سِمَاكِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ﴾ قَالَ: مَعَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ.  
وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَلَائِكَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الْفَتْكِ  
بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِرَادَتِهِ بِالسُّوءِ وَالصَّلْبِ، حِينَ تَمَالَأُوا عَلَيْهِ وَوَسَّوْا  
بِهِ إِلَى مَلِكِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ كَافِرًا، فَأَنهَوْا إِلَيْهِ أَنْ هَاهُنَا رَجُلًا يُضِلُّ  
النَّاسَ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ طَاعَةِ الْمَلِكِ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ  
مِمَّا تَقَلَّدُوهُ فِي رِقَابِهِمْ وَرَمَوْهُ بِهِ مِنَ الْكَذِبِ، وَأَنَّهُ وَلَدُ زَانِيَةٍ! حَتَّى اسْتَشَارُوا

(١) أي الذين يغسلون الثياب ويبيضونها. والحور: البياض.

(٢) البخاري (٢٨٣٦) ومسلم (٢٤١٥).

غَضَبَ الْمَلِكِ، فَبَعَثَ فِي طَلْبِهِ مَنْ يَأْخُذُهُ وَيَصْلُبُهُ وَيُنْكَلُ بِهِ، فَلَمَّا أَحَاطُوا  
بِمَنْزِلِهِ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِهِ، نَجَّاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَرَفَعَهُ مِنْ رَوْزَنَةِ (١)  
ذَلِكَ الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَلْقَى اللَّهُ شَبَّهُهُ عَلَى رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ عِنْدَهُ فِي  
الْمَنْزِلِ، فَلَمَّا دَخَلَ أُولَئِكَ اعْتَقَدُوهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
فَأَخَذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَصَلَبُوهُ، وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الشَّوْكَ. وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ  
اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ  
يَعْمَهُونَ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِطَلْبَتِهِمْ، وَأَسْكَنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ قَسْوَةً  
وَعِنَادًا لِلْحَقِّ مُلَازِمًا لَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ ذَلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ؛ وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الرَّوزَنَةُ: الكوة النافذة في أعلى الجدار أو السقف، للإضاءة والتهوية.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ﴾ وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَفَاةِ هَاهُنَا: النَّوْمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالْأَيْلِ وَيَعَلِّمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا قَامَ مِنَ النَّوْمِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَافِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: وَمُطَهِّرُكَ بِرَفْعِي إِيَّاكَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ؛ فَإِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ تَفَرَّقَتْ أَصْحَابُهُ شَيْعًا بَعْدَهُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٢، ٦٣٢٥) من حديث حذيفة وأبي ذر، وأخرجه مسلم

(٢٧١١) من حديث البراء.

عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَابْنُ أُمَّتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ غَلَا فِيهِ فَجَعَلَهُ ابْنَ اللَّهِ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ اللَّهُ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَقَدْ حَكَى اللَّهُ مَقَالَاتِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَرَدَ عَلَى كُلِّ فَرِيقٍ، فَاسْتَمَرُّوا كَذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ نَبَعَ لَهُمْ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ، وَكَانَ فَيْلَسُوفًا يُقَالُ لَهُ: قُسْطَنْطِينُ، فَدَخَلَ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، قِيلَ: دَخَلَ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ لِيُفْسِدَهُ، وَقِيلَ: جَهْلًا مِنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ بَدَّلَ لَهُمْ دِينَ الْمَسِيحِ وَحَرَّفَهُ، وَزَادَ فِيهِ وَنَقَصَ مِنْهُ، وَوَضَعَتْ لَهُ الْقَوَانِينُ وَالْأَمَانَةُ الْكَبِيرَةُ -الَّتِي هِيَ الْخِيَانَةُ الْحَقِيرَةُ!- وَأُحِلَّ فِي زَمَانِهِ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ، وَصَلَّوْا لَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ وَصَوَّرُوا لَهُ الْكَنَائِسَ، وَزَادُوا فِي صِيَامِهِمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ ارْتِكَابِهِ، فِيمَا يَزْعُمُونَ. وَصَارَ دِينُ الْمَسِيحِ دِينَ قُسْطَنْطِينِ إِلَّا أَنَّهُ بَنَى لَهُمْ مِنَ الْكَنَائِسِ وَالْمَعَابِدِ وَالصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ مَا يَزِيدُ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مَعْبَدٍ، وَبَنَى الْمَدِينَةَ الْمَنْسُوبَةَ إِلَيْهِ، وَاتَّبَعَهُ الطَّائِفَةُ الْمَلِكِيَّةُ مِنْهُمْ. وَهُمْ فِي هَذَا قَاهِرُونَ لِلْيَهُودِ، قَدْ آيَدَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ كَفَّارًا، عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَكَانَ مَنْ آمَنَ بِهِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ، كَانُوا هُمْ أَتْبَاعَ كُلِّ نَبِيِّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، إِذْ قَدْ صَدَّقُوا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، خَاتَمَ الرُّسُلِ، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، الَّذِي دَعَاهُمْ

إِلَى التَّصْدِيقِ بِجَمِيعِ الْحَقِّ، فَكَانُوا أَوْلَىٰ بِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ أُمَّتِهِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ مِلَّةِ وَطَرِيقَتِهِ، مَعَ مَا قَدْ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا. ثُمَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَكَانَ قَدْ نَسَخَ اللَّهُ بِشَرِيْعَتِهِ شَرِيْعَةَ جَمِيعِ الرُّسُلِ بِمَا بَعَثَ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ، الَّذِي لَا يُعَيَّرُ وَلَا يُبَدَّلُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلَا يَزَالُ قَائِمًا مَنْصُورًا ظَاهِرًا عَلَىٰ كُلِّ دِينٍ. فَلِهَذَا فَتَحَ اللَّهُ لِأَصْحَابِهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَاحْتَازُوا جَمِيعَ الْمَمَالِكِ، وَدَانَتْ لَهُمْ جَمِيعُ الدُّوَلِ، وَكَسَرُوا كِسْرَىٰ، وَقَصَرُوا قَيْصَرَ، وَسَلَبُواهُمَا كُنُوزَهُمَا، وَأُنْفِقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ نَبِيُّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]. وَلِهَذَا لَمَّا كَانُوا هُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَسِيحِ حَقًّا سَلَبُوا النَّصَارَىٰ بِلَادَ الشَّامِ وَأَجْلَوْهُمْ إِلَىٰ الرُّومِ، فَلَجَّوْا إِلَىٰ مَدِينَتِهِمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ فَوْقَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ أُمَّتَهُ بِأَنَّ آخِرَهُمْ سَيَفْتَحُونَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَيَسْتَفِيضُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَيَقْتُلُونَ الرُّومَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهَا وَلَا يَرُونَ بَعْدَهَا نَظِيرَهَا، وَقَدْ جَمَعْتُ فِي هَذَا جُزْءًا مُفْرَدًا.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾<sup>٥٥</sup> فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَىٰ بِمَنْ كَفَرَ بِالْمَسِيحِ مِنَ الْيَهُودِ، أَوْ غَلَا فِيهِ وَأَطْرَاهُ مِنَ النَّصَارَىٰ؛ عَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ وَإِزَالَةَ الْأَيْدِي عَنِ الْمَمَالِكِ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَشَقُّ﴾ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿[الرعد: ٣٤].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي أَمْرِ عِيسَىٰ وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ وَكَيْفِيَّةِ أَمْرِهِ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ [مريم: ٣٥، ٣٤] وَهَاهُنَا قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ

فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ

وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ

اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ

إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمَّ، بَلْ ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَالَّذِي خَلَقَ آدَمَ قَادِرٌ عَلَىٰ خَلْقِ عِيسَىٰ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْآخَرَىٰ، وَإِنْ جَازَ ادِّعَاءُ الْبُتُوَّةِ فِي عِيسَىٰ بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَجَوَّازُ ذَلِكَ فِي آدَمَ بِالطَّرِيقِ الْأَوْلَىٰ، وَمَعْلُومٌ

بِالِاتِّفَاقِ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، فَدَعَوَاهَا فِي عَيْسَى أَشَدُّ بَطْلَانًا وَأَظْهَرُ فَسَادًا.  
 وَلَكِنَّ الرَّبَّ، عَزَّ وَجَلَّ، أَرَادَ أَنْ يُظْهَرَ قُدْرَتَهُ لِخَلْقِهِ، حِينَ خَلَقَ آدَمَ لَا مِنْ  
 ذَكَرٍ وَلَا مِنْ أُنْثَى؛ وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ عَيْسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا  
 ذَكَرٍ، كَمَا خَلَقَ بَقِيَّةَ الْبَرِيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ:  
 ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ  
 الْمُمْتَرِينَ﴾ أَي: هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْحَقُّ فِي عَيْسَى، الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا  
 صَحِيحَ سِوَاهُ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عَيْسَى  
 بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ  
 أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: نُحْضِرُهُمْ فِي  
 حَالِ الْمُبَاهَلَةِ ﴿ثُمَّ نَبْتَلِمْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أَي:  
 نَلْتَعِنُ ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: مِنَّا أَوْ مِنْكُمْ.

وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا فِي  
 وَفِدِ نَجْرَانَ: أَنَّ النَّصَارَى حِينَ قَدِمُوا فَجَعَلُوا يُحَاجُّونَ فِي عَيْسَى،  
 وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ مِنَ الْبُنُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ  
 رَدًّا عَلَيْهِمْ، كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارَ وَغَيْرُهُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي شَأْنِ عَيْسَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَعْدَلَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٦٢ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: عَنْ هَذَا إِلَى غَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَي: مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ فَهُوَ الْمُفْسِدُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ، وَهُوَ الْقَادِرُ الَّذِي لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ حُلُولِ نِقَمِهِ.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ

دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ٦٤ .

هَذَا الْخِطَابُ يُعْمُّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ. ثُمَّ وَصَفَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَي: عَدْلٍ وَنَصْفٍ، نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا. ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لَا وَثَنًا، وَلَا صَنَمًا، وَلَا صَلِيبًا وَلَا

طَاغُوتًا، وَلَا نَارًا، وَلَا شَيْئًا بَلْ نُفِرْدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذِهِ دَعْوَةٌ جَمِيعِ الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيحٍ: يَعْنِي لَا يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي لَا يَسْجُدُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أَي: فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النَّصْفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةِ فَأَشْهَدُوهُمْ أَنْتُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، عِنْدَ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، فِي قِصَّتِهِ حِينَ دَخَلَ عَلَى فَيْصَرَ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ صِفَتِهِ وَنَعْتِهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَهُ بِجَمِيعِ ذَلِكَ عَلَى الْجَلِيلَةِ، مَعَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا لَمْ يُسْلَمْ بَعْدُ. وَالْعَرَضُ أَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ جِيءَ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى). أَمَّا

بَعْدُ، فَاسْلِمْ تَسْلِمًا، وَأَسْلِمِ يُوْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ  
إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَتَاهَلُ الْكِنْبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا  
نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١).

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ  
التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ  
﴿٦٥﴾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءَ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ  
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ  
إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا  
النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ  
الْحَلِيلِ، وَدَعَايَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، كَمَا رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ

(١) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَخْبَارُ يَهُودَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ، فَقَالَتِ الْأَخْبَارُ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا يَهُودِيًّا. وَقَالَتِ النَّصَارَى مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا نَصْرَانِيًّا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَيُّ: كَيْفَ تَدَّعُونَ أَيُّهَا الْيَهُودُ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَدْ كَانَ زَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى؟ وَكَيْفَ تَدَّعُونَ أَيُّهَا النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَإِنَّمَا حَدَّثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَنِهِ بِدَهْرٍ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿هَتَأَنْتُمْ هَتُؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِلَا عِلْمٍ، وَلَوْ تَحَاجُّوا فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمُ الَّتِي شَرَعَتْ لَهُمْ إِلَى حِينِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾  
 أَي: مُتَّحِنًا عَنِ الشَّرْكِ قَاصِدًا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وَهَذِهِ  
 الْآيَةُ كَالَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ  
 بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ  
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى: أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ  
 الْخَلِيلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَى دِينِهِ، وَهَذَا النَّبِيُّ - يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ - وَالَّذِينَ  
 ءَامَنُوا مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ . وَقَوْلُهُ: ﴿ وَاللَّهُ وَلىُّ  
 الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي: وَلِي جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِرَسُولِهِ .

﴿ وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ

وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ الْبَشَرَ لَشَيْءٍ أَلَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ

يُؤْتِي أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُجَازِيكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَّ بِيَدِ اللَّهِ

يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْضُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

### ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمْ الْإِضْلَالَ،  
وَأَخْبَرَ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ أَنَّهُمْ  
مَمْكُورٌ بِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ﴾ أَي: تَعْلَمُونَ صِدْقَهَا وَتَحَقِّقُونَ حَقَّهَا ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ  
لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي: تَكْتُمُونَ مَا فِي  
كُتُبِكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَتَحَقِّقُونَهُ.

﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ  
النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وَهَذِهِ مَكِيدَةٌ أَرَادُوهَا لِيَلْبِسُوا عَلَى  
الضُّعْفَاءِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ اشْتَرَوْا بَيْنَهُمْ أَنْ يُظْهِرُوا الْإِيمَانَ  
أَوَّلَ النَّهَارِ وَيُصَلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَإِذَا جَاءَ آخِرُ النَّهَارِ ارْتَدُّوا

إِلَىٰ دِينِهِمْ لِيَقُولَ الْجَهْلَةُ مِنَ النَّاسِ: إِنَّمَا رَدَّوهُمَ إِلَىٰ دِينِهِمْ أَطَّلَعُهُمْ عَلَىٰ نَقِيصَةٍ وَعَيْبٍ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: صَلَّتْ يَهُودُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ وَكَفَرُوا آخِرَ النَّهَارِ، مَكْرًا مِنْهُمْ، لِيُرُوا النَّاسَ أَنْ قَدْ بَدَتْ لَهُمْ مِنْهُ الضَّلَالَةُ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا اتَّبَعُوهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أَي: لَا تَطْمَئِنُّوا وَتُظْهِرُوا سِرَّكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ إِلَّا لِمَنْ اتَّبَعَ دِينَكُمْ، وَلَا تُظْهِرُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَحْتَجُّوا بِهِ عَلَيْكُمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهُ ﷻ أَيُّ هُوَ الَّذِي يَهْدِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أُمَّةِ الْإِيمَانِ، بِمَا يُنَزِّلُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالِدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ، وَإِنْ كَتَمْتُمْ -أَيُّهَا الْيَهُودُ- مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنْ صِفَةٍ مُحَمَّدٍ فِي كُتُبِكُمُ الَّتِي نَقَلْتُمُوهَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ.

وَقَوْلُهُ ﴿اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُونَ: لَا تُظْهِرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ لِلْمُسْلِمِينَ، فَيَتَعَلَّمُوهُ مِنْكُمْ، وَيَسْأَلُوكُمْ فِيهِ، وَيَمْتَازُوا بِهِ عَلَيْكُمْ لِشِدَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ، أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ، أَي: يَتَّخِذُوهُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ مِمَّا بِأَيْدِيكُمْ، فَتَقُومُ بِهِ عَلَيْكُمْ الدَّلَالَةُ وَتَتَرَكَّبُ الْحُجَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ

الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴿٧٤﴾ أَي: الْأُمُورُ كُلَّهَا تَحْتَ تَصْرِيْفِهِ، وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ، يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالتَّصَوُّرِ التَّامِّ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُعْمِي بَصْرَهُ وَبَصِيرَتَهُ، وَيَخْتِمُ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَيَجْعَلُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، وَلَهُ الْحُجَّةُ وَالْحِكْمَةُ.

﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عِلْمُهُ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أَي: اخْتَصَّكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، بِمَا شَرَّفَ بِهِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَهَذَاكُمْ بِهِ لِأَحْمَدِ الشَّرَائِعِ.

﴿ وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ

إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا

لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ بَأَنَّ فِيهِمْ الْخَوْنَءَ، وَيَحْذِرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ

الْإِغْتِرَارِ بِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ﴾ أَي: مِنَ الْمَالِ ﴿يُؤَدِّهِ﴾

﴿إِلَيْكَ﴾ أَي: وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى أَنْ يُؤَدِّيَهُ إِلَيْكَ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ



تَأْمَنُهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴿١٠﴾ أَي: بِالْمُطَابَةِ  
وَالْمَلَازِمَةِ وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعَهُ فِي  
الدِّينَارِ، فَمَا فَوْقَهُ أَوْلَى الْأَيُّودِيَّةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْقِنْطَارِ فِي أَوَّلِ  
السُّورَةِ، وَأَمَّا الدِّينَارُ فَمَعْرُوفٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ ﴿١١﴾ أَي: إِنَّمَا  
حَمَلَهُمْ عَلَى جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرْجٌ فِي  
أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيَنَ، وَهُمْ الْعَرَبُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّهَا لَنَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أَي: وَقَدْ اخْتَلَقُوا هَذِهِ  
الْمَقَالَةَ، وَاتَّفَكُّوا بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا  
بِحَقِّهَا، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهَتَ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ ﴿١٣﴾ أَي: لَكِنْ مَنْ أَوْفَى  
بِعَهْدِهِ مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِي عَاهَدَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ، مِنَ الْإِيمَانِ  
بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ، كَمَا أَخَذَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمِهِمْ  
بِذَلِكَ، وَاتَّقَى مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى وَاتَّبَعَ طَاعَتَهُ وَشَرِيعَتَهُ الَّتِي بُعِثَ بِهَا  
خَاتَمَ رُسُلِهِ وَسَيِّدَ الْبَشَرِ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٤﴾.

(١) أي: أهل إفك وكذب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَعْتَاضُونَ عَمَّا عَاهَدَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَكَرِ صِفَتِهِ لِلنَّاسِ وَبَيَانِ أَمْرِهِ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةَ الْفَاجِرَةَ الْأَيْمَةَ بِالْأَثْمَانِ الْقَلِيلَةِ الزَّهِيدَةِ، وَهِيَ عُرُوضُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أَي: لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا، وَلَا حَظَّ لَهُمْ مِنْهَا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَي: بِرَحْمَةٍ مِنْهُ لَهُمْ، بِمَعْنَى: لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامَ لُطْفٍ بِهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أَي: مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَذْنَانِ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَلْنَذَكُرْ مَا تيسَّرَ مِنْهَا:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ

هُم؟ خَابُوا وَخَسِرُوا. قَالَ: وَأَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ:  
(المُسْبِل، والمَنَّان، والمُنْتَفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ) (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ حَلَفَ عَلَيَّ  
يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ  
عَلَيْهِ غَضَبَان). فَقَالَ الْأَشْعَثُ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ  
الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
(أَلَكِ بَيْتَةٌ؟) قُلْتُ: لَا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: (احْلِفْ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا  
يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ مَالِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ  
وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا  
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ:  
رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَيَّ سِلْعَةً بَعْدَ  
الْعَصْرِ - يَعْنِي كَاذِبًا - وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا، فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ  
يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ) (٣).

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٢) البخاري (٢٤١٦) ومسلم (١٣٨).

(٣) البخاري (٢٦٧٢، ٧٢١٢) ومسلم (١٠٨).

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ

الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا

هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمُ لَعَائِنُ اللَّهِ - أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يُحَرِّفُونَ  
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَبَدِّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ، وَيَزِيلُونَهُ عَنِ الْمُرَادِ بِهِ، لِيُوْهِمُوا  
الْجَهْلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ،  
وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ،  
وَقَتَادَةَ: ﴿لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ يُحَرِّفُونَهُ.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ

لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ

تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا

الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ .

روى ابنُ إسحاق عن ابن عباس: أن أبا رافعٍ القرظي قال - حين اجتمعت الأخبارُ من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام - : أتريدُ يا مُحَمَّدُ أن نعبدَكَ كما تعبدُ النصارى عيسى ابنَ مريمَ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: (معاذَ الله أن نعبدَ غيرَ الله، أو أن نأمرَ بعبادةٍ غيره، ما بذلكَ بعثني، ولا بذلكَ أمرني) أو كما قال ﷺ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في ذلك من قولهما: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ (١).

فقوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: ما ينبغي لبشرٍ آتاهُ اللهُ الكتابَ والحكمَ والنبوةَ أن يقولَ للناسِ: اعبدوني من دُونِ اللهِ. أي: معَ اللهِ، فإذا كانَ هذا لا يصلحُ لِنبيٍّ ولا لمرسلٍ، فلأنَّ لا يصلحُ لأحدٍ من الناسِ غيرُهُم بطريقِ الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الحسنُ البصريُّ: كان أولئك

(١) أخرجه الطبري (٥/٥٢٤) وابن أبي حاتم (٢/٦٩٣) من طريق ابن إسحاق.

الْقَوْمِ يَعْبُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا - يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ - كَانُوا يَتَعَبَّدُونَ لِأَخْبَارِهِمْ  
وَرُهْبَانِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا  
مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا  
وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وَفِي الْمُسْنَدِ، وَالتِّرْمِذِيُّ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا  
عَبَدُوهُمْ. قَالَ: (بلى)، إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ،  
فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ<sup>(١)</sup>.

فَالْجَهْلَةُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَمَشَايخِ الضَّلَالِ يَدْخُلُونَ فِي  
هَذَا الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ وَاتِّبَاعِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ،  
فَإِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَبَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامَ. وَيَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا  
نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ وَبَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامَ. فَالرُّسُلُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ  
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، هُمُ السُّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي آدَاءِ مَا  
حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاحِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَتَمَّ قِيَامٍ، وَنَصَحُوا  
الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمْ الْحَقَّ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) والطبري (٤١٧/١١) والبيهقي (١١٦/١٠)، ولم أجده في

المسند. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أَي: وَلَكِنْ يَقُولُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ: كُونُوا رَبَّانِينَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيُّ فُقَهَاءَ. وَعَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: يَعْنِي كُونُوا أَهْلَ عِبَادَةٍ وَأَهْلَ تَقْوَى. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ حَقٌّ عَلَى مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا.

﴿تُعَلِّمُونَ﴾ أَي: تَفْهَمُونَ مَعْنَى الْكِتَابِ، وَقُرِئَ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّعْلِيمِ. ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تَحْفَظُونَ الْفَاطَةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَةَ وَالنِّسَاءَ أَرْبَابًا﴾ أَي: وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، لَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ وَلَا مَلِكٍ مُقَرَّبٍ ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: لَا يَفْعَلْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾

[الزخرف: ٤٥] وَقَالَ تَعَالَىٰ إِيخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكٌ يُجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآءَآتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ

ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ

ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا

مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

### الْفٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَىٰ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَهْمَا آتَىٰ اللَّهُ أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَبَلَغَ أَيِّ مَبْلَغٍ، ثُمَّ جَاءَهُ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ، لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَلَا يَمْنَعَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ مِنْ آتِبَاعٍ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ وَنُصِرَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآءَآتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ﴾ أَيُّ: لَمَهْمَا أُعْطِيْتُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾. قَالَ ابْنُ



عَبَّاسٍ: يَعْنِي عَهْدِي. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ﴿إِصْرِي﴾ أَي: ثَقَلَ مَا حُمِّلْتُمْ مِنْ عَهْدِي، أَي مِيثَاقِي الشَّدِيدَ الْمُؤَكَّدَ.

﴿قَالُوا أَفَرَزْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَي: عَنِ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ عَمَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ، لَئِنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ: لَئِنْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ.

فَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ الَّذِي لَوْ وُجِدَ فِي أَيِّ عَصْرِ لَكَانَ هُوَ الْوَاجِبَ الطَّاعَةَ الْمُقَدَّمَةَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ؛ وَلِهَذَا كَانَ إِمَامَهُمْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ لَمَّا اجْتَمَعُوا بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الشَّفِيعُ فِي يَوْمِ الْحَشْرِ فِي إِيْتَانِ الرَّبِّ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي لَا يَلِيقُ إِلَّا لَهُ، وَالَّذِي يَحِيدُ عَنْهُ أَوْلُو الْعِزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، حَتَّى تَنْتَهِيَ النَّوْبَةُ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ هُوَ الْمَخْصُوصَ بِهِ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ  
 عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ  
 وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ  
 بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا  
 فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُنْكَرًا عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ دِينًا سِوَىٰ دِينِ اللَّهِ، الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ  
 كِتَابَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَهُوَ عِبَادَتُهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ  
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: اسْتَسْلَمَ لَهُ مَنْ فِيهِمَا طَوْعًا وَكَرْهًا، كَمَا  
 قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمًا لَهُم بِالْغُدُوِّ  
 وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوُا  
 ظِلْمًا لَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي  
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) يَخَافُونَ  
 رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠]. فَالْمُؤْمِنُ مُسْتَسْلِمٌ

بِقَلْبِهِ وَقَالِبِهِ لِلَّهِ، وَالْكَافِرُ مُسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ كَرَهَا، فَإِنَّهُ تَحْتَ التَّسْخِيرِ وَالْقَهْرِ  
وَالسُّلْطَانِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ. ﴿وَإِلَيْهِ  
يُرْجَعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ  
﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أَي: مِنْ  
الصُّحُفِ وَالْوَحْيِ: ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وَهُمْ بَطُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْإِثْنَا عَشَرَ  
الْمُتَشَعَّبَةُ مِنْ أَوْلَادِ إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ - ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾  
يَعْنِي: بِذَلِكَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿وَالنَّبِيِّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَهَذَا يَعُمُّ  
جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جُمْلَةً ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي: بَلْ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ  
﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ  
أُرْسِلَ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنزِلَ، لَا يَكْفُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بَلْ هُمْ مُصَدِّقُونَ  
بِمَا أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أَي: مَنْ  
سَلَكَ طَرِيقًا سِوَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

الْحَسِرِينَ ﴿ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) (١).

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا

أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ

وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ

عَنَّهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ

ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سلوا لي رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) متفق عليه، وقد تقدم.

رَّحِيمٌ ﴿١﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قَوْمَهُ فَأَسْلَمَ. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ،  
وَالْحَاكِمُ<sup>(١)</sup>، وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا  
أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ﴿١﴾ أَي: قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ وَالْبَرَاهِينُ  
عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُولُ، وَوَضَحَ لَهُمُ الْأَمْرَ، ثُمَّ ارْتَدُّوا إِلَى ظُلْمَةِ  
الشَّرْكِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ الْهَدَايَةَ بَعْدَ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْعِمَايَةِ؟! وَلِهَذَا  
قَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ  
أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١﴾ أَي: يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ خَلْقُهُ ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ ﴿١﴾ أَي: فِي اللَّعْنَةِ  
﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿١﴾ أَي: لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا  
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَّحِيمٌ﴾ ﴿١﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ وَبِرِّهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَائِدَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ: أَنَّهُ مَنْ  
تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ.

(١) ابن جرير الطبري (٥٥٧/٥) والنسائي (٤٠٦٨) وابن حبان (٤٤٧٧) والحاكم  
(١٤٢/٢). و صححه أيضًا الضياء في المختارة (٣٤٠/١١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ

وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ

يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۗ أُولَئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمَتَهَدِّدًا لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ ثُمَّ أَزْدَادَ كُفْرًا،  
 أَي: اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ لَهُمْ تَوْبَةً عِنْدَ  
 مَمَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ  
 السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ  
 يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].  
 وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أَي:  
 الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الْغَيِّ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ  
 الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أَي: مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ خَيْرٌ  
 أَبَدًا، وَلَوْ كَانَ قَدْ أَنْفَقَ مِلءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا فِيمَا يَرَاهُ قُرْبَةً، كَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ  
 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ -وَكَانَ يُقْرِئُ الضَّيْفَ، وَيُنْفِكُ الْعَانِي، وَيُطْعَمُ

الطَّعَامِ-: هَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: (لَا إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) (١).

وَكَذَلِكَ لَوْ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ أَيْضًا ذَهَبًا مَا قُبِلَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] وَقَالَ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ وَقَالَ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَن لَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ ﴿فَعَطَفَ﴾ ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ. وَيَفْتَضِي ذَلِكَ أَلَّا يُنْقِذَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ قَدْ أَنْفَقَ مِثْلَ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَوْ افْتَدَى نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرِها وبرِّها وبحرِّها.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ. قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ

(١) أخرجه مسلم (٢١٤) من حديث عائشة.

عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ أَدَمَ إِلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ) أَخْرَجَهُ  
الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ (١).

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أَي: وَمَا لَهُمْ  
مِنْ أَحَدٍ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا يَجِيرُهُمْ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ

بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ  
أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرِحاءُ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةً  
الْمَسْجِدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٌ.

قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَالَ أَبُو  
طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾  
وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرِحاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ  
تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (بِخِ،

(١) البخاري (٣٣٣٤) ومسلم (٢٨٠٥).



ذَٰكَ مَالٌ رَّابِحٌ، ذَٰكَ مَالٌ رَّابِحٌ، وَأَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ). فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعَلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ (١).

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ ﴾

إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ

فَاتُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: حَدَّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسَأَلَك عَنْهُنَّ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ. قَالَ: (سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَيَّ بَنِيهِ لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ). فَقَالُوا: ذَٰلِكَ لَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ)، فَقَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ خِلَالٍ: أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ؟ فَقَالَ: (أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ

(١) البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨).

التَّورَةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضٌ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ  
سُقْمُهُ، فَذَرَّ لِلَّهِ نَذْرًا لِّئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سُقْمِهِ لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ  
وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانِ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ  
إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا) فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. إِلَىٰ آخِرِ الْحَدِيثِ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّورَةُ﴾ ❖ أَي: حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ  
أَنْ تُنَزَّلَ التَّورَةُ.

قُلْتُ: وَلِهَذَا السِّيَاقِ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مُنَاسَبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا  
لِلَّهِ، وَكَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرِيعَتِهِمْ فَلَهُ مُنَاسَبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ  
تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ❖ فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ  
مِمَّا يَحِبُّهُ الْعَبْدُ وَيَشْتَهِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَتَىٰ أَلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ ❖ [البقرة: ١٧٧]  
وَقَالَ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ ❖ [الإنسان: ٨].

الْمُنَاسَبَةُ الثَّانِيَةُ: لَمَّا تَقَدَّمَ السِّيَاقُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ النَّصَارَىٰ، وَاعْتِقَادِهِمْ  
الْبَاطِلَ فِي الْمَسِيحِ وَتَبَيَّنَ زَيْفَ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَظَهَرَ الْحَقُّ وَالْيَقِينُ فِي أَمْرِ  
عِيسَىٰ وَأُمَّهِ، وَكَيْفَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٤) والطبري (٢/٢٨٤) والطبراني في «الكبير» (١٢/٢٤٦).

يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَىٰ = شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الْيَهُودِ قَبْحَهُمُ اللَّهُ، وَبَيَانَ أَنَّ النَّسْخَ الَّذِي أَنْكَرُوا وَقُوْعَهُ وَجَوَازَهُ قَدْ وَقَعَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَةَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ لُحْمَانَ الْإِبِلِ وَالْبَنَانِهَا، فَاتَّبَعَهُ بُنُوهُ فِي ذَلِكَ، وَجَاءَتِ التَّوْرَةُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ، وَأَشْيَاءَ أُخَرَ زِيَادَةً عَلَىٰ ذَلِكَ. وَكَانَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ أَذِنَ لِأَدَمَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَكَانَ التَّسْرِي عَلَىٰ الزَّوْجَةِ مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ فَعَلَهُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ فِي هَاجِرَ لَمَّا تَسْرَىٰ بِهَا عَلَىٰ سَارَةَ، وَقَدْ حُرِّمَ مِثْلُ هَذَا فِي التَّوْرَةِ عَلَيْهِمْ. وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ شَائِعًا وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَمَعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، ثُمَّ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ. وَهَذَا كُلُّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ عِنْدَهُمْ، فَهَذَا هُوَ النَّسْخُ بِعَيْنِهِ، فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي إِحْلَالِهِ بَعْضَ مَا حُرِّمَ فِي التَّوْرَةِ، فَمَا بِالْهَمِّ لَمْ يَتَّبِعُوهُ؟ بَلْ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَكَذَلِكَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمَلَّةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، فَمَا بِالْهَمِّ لَا يُؤْمِنُونَ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ ❁ أَي: كَانَ حَلَالًا لَهُمْ جَمِيعُ الطَّعْمَةِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ؛ فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِمَا قُلْنَا. ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾  
 أَي: فَمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَادَّعَى أَنَّهُ شَرَعَ لَهُمُ السَّبْتَ وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَةِ دَائِمًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا آخَرَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْبَرَاهِينِ وَالحُجَجِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ وُقُوعِ النَّسْخِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَاهُ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: صَدَقَ اللَّهُ فِيَمَا أَخْبَرَ بِهِ وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَي: اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلٍ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَتَمَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى

النَّاسِ حُجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ

## الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، أَي: لِعُمُومِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهِمْ  
وَنُسُكِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿لِلَّذِي بَكَتَ﴾ يَعْنِي:  
الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي يَزْعَمُ كُلُّ مَنْ طَائِفَتِي  
النَّصَارَى وَالْيَهُودِ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحُجُّونَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي  
بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَنَادَى النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُبَارَكًا﴾  
أَي: وَضِعَ مُبَارَكًا ﴿وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ﴾.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:  
قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ:  
(الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ). قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى). قُلْتُ:  
كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً) (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِي بَكَتَ﴾ بَكَّة: مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ، قِيلَ  
سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبُكُّ أَعْنَاقَ الظُّلَمَةِ وَالْجَبَابِرَةِ، بِمَعْنَى: يُبْكُونُ بِهَا

(١) البخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠).

وَيَخْضَعُونَ عِنْدَهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّ النَّاسَ يَتَبَاكُونَ فِيهَا، أَي: يَزْدَحِمُونَ. قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ بَكَ بِهِ النَّاسَ جَمِيعًا، فَيُصَلِّي النِّسَاءُ أَمَامَ الرِّجَالِ، وَلَا يُفْعَلُ ذَلِكَ بِلَدِّ غَيْرِهَا. وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: الْبَيْتُ وَمَا حَوْلَهُ بَكَّةٌ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَكَّةٌ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمُقَاتِلٌ: بَكَّةٌ مَوْضِعُ الْبَيْتِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مَكَّةٌ. وَقَدْ ذَكَرُوا لِمَكَّةَ أَسْمَاءَ كَثِيرَةً: مَكَّةَ، وَبَكَّةَ، وَالْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَالْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَالْبَلَدَ الْأَمِينَ، وَالْمَأْمُونَ، وَأُمَّ رُحْمَ، وَأُمَّ الْقُرَى، وَالْعَرْشَ عَلَى وَزْنِ بَدْرٍ، وَالْقَادِسَ؛ لِأَنَّهَا تُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمُقَدَّسَةَ، وَالنَّاسَةَ: بِالنُّونِ، وَبِالْبَاءِ أَيْضًا، وَالْحَاطِمَةَ، وَالنَّسَاسَةَ، وَالرَّأْسَ، وَكُوَيْثَ، وَالْبَلْدَةَ، وَالْبَيْتَةَ، وَالْكَعْبَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أَي: دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي: الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدْرَانِ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ وَيُنَاوِلُهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِقًا بِجِدَارِ الْبَيْتِ، حَتَّى آخَرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الطَّوَّافُ، وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطَّوَّافِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا

بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ فِي ذَلِكَ، فَأَعْنَى عَنِ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَي: فَمِنْهُنَّ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَشْعَرِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَثَرُ قَدَمَيْهِ فِي الْمَقَامِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ. وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرِ نَاعِلٍ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يَعْنِي: حَرَمَ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْخَائِفُ يَأْمَنُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ فَيَدْخُلُ الْحَرَمَ فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمَقْتُولِ فَلَا يُهَيِّجُهُ حَتَّى يَخْرُجَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ عَادَ بِالْبَيْتِ أَعَادَهُ الْبَيْتُ، وَلَكِنْ لَا يُطْعَمُ وَلَا يُسْقَى، فَإِذَا خَرَجَ أَخَذَ بِذَنْبِهِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۗ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤] وَمِنْ جُمَلَةِ تَحْرِيمِهَا حُرْمَةُ اضْطِيَادِ صَيْدِهَا وَتَنْفِيرِهِ عَنْ أَوْكَارِهِ، وَحُرْمَةُ قَطْعِ أَشْجَارِهَا وَقَلْعِ ثَمَارِهَا كَمَا ثَبَتَتْ الْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ فِي ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَرْفُوعًا

وَمَوْقُوفًا. فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا). فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الْإِذْخَرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِيُبُوتِهِمْ، فَقَالَ: (إِلَّا الْإِذْخَرَ) (١).

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ). رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْحَمْرَاءِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ). رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهَذَا لَفْظُهُ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(١) البخاري (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣).

(٢) برقم (١٣٥٦).

(٣) أحمد (١٨٧١٥) والترمذي (٣٩٢٥)، وصححه أيضًا ابن حبان (٣٧٠٨) والحاكم (٢٨٠/٣).



وَقَالَ يَحْيَىٰ بِنِ جَعْدَةَ بِنِ هُبَيْرَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ قَالَ: أَي كَانَ آمِنًا مِنَ النَّارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ هَذِهِ آيَةٌ  
وُجُوبِ الْحَجِّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَقِيلَ: بَلْ هِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ  
لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ. وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ بِأَنَّهُ  
أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَدَعَائِمِهِ وَقَوَاعِدِهِ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ  
إِجْمَاعًا ضَرُورِيًّا، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْمَكْلَفِ فِي الْعُمْرَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً  
بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ  
فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا). فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ،  
حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبْتُ، وَلَمَّا  
اسْتَطَعْتُمْ). ثُمَّ قَالَ: (ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ  
سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا  
اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ). رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

(١) برقم (١٣٣٧).

وَأَمَّا الْإِسْتِطَاعَةُ فَأَقْسَامٌ: تَارَةً يَكُونُ الشَّخْصُ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ، وَتَارَةً بغيره، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ.

وروى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال: (الشعث التفل)، فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: (العج والشج)، فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: (الزاد والراحلة) (١). قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الخوزي، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. كذا قال هاهنا. وقال في كتاب الحج: هذا حديث حسن.

وقد روي هذا الحديث من طرق آخر من حديث أنس، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعائشة كلها مرفوعة، ولكن في أسانيدها مقال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير (٢٩٩٨) وفي كتاب الحج (٨١٣).

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قَالَتِ الْيَهُودُ: نَحْنُ مُسْلِمُونَ. فَأَخْصَمَهُمُ اللَّهُ وَحَجَّهْمُ، وَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) فَقَالُوا: لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْنَا، وَأَبَوْا أَنْ يَحْجُّوا. فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً وَلَمْ يَحْجَّ بَيْتَ اللَّهِ، فَلَا يَضُرُّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾) (١).

وعن عبد الرحمن بن عَنَمٍ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ فَلَمْ يَحْجَّ، فَسَوَاءٌ عَلَيْهِ يَهُودِيًّا مَاتَ أَوْ نَصْرَانِيًّا. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الترمذي (٨١٢) من رواية الحارث الأعور عن علي. قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال، وهلال بن عبد الله مجهول، والحارث يُضَعَّفُ في الحديث».

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: قَالَ  
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أْبْعَثَ رِجَالًا إِلَى هَذِهِ الْأَمْصَارِ  
فَيَنْظُرُوا كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ جِدَّةٌ فَلَمْ يَحُجَّ، فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ، مَا  
هُمُ بِمُسْلِمِينَ. مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ».

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾

﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا

عُوجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

هَذَا تَعْنِيفٌ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِكُفْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، عَلَىٰ عِنَادِهِمْ  
لِلْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَصَدَّهُمْ عَن سَبِيلِهِ مَن أَرَادَهُ مِّنْ أَهْلِ  
الْإِيمَانِ بِجُهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ  
مِّنَ اللَّهِ، بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَالسَّادَةِ  
الْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمَا بَشَّرُوا بِهِ  
وَنُوهُوا مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْهَاشِمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ، سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ،  
وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَسُولِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ بِمَا خَالَفُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَقَابِلَتِهِمُ الرَّسُولَ الْمُبَشِّرَ بِالتَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ وَالْعِنَادِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، أَيُّ: وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُهُمْ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

يُرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ

### مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ أَنْ يُطِيعُوا طَائِفَةً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، الَّذِينَ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَمَا مَنَحَهُمْ مِنْ إِرْسَالِ رَسُولِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يُرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَيفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْكُفْرَ بَعِيدٌ مِنْكُمْ وَحَاشَاكُمْ مِنْهُ؛

فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَيَّ رَسُولِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَهُوَ يَتْلُوهَا عَلَيْكُمْ وَيُبَلِّغُهَا إِلَيْكُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] وَالآيَةُ بَعْدَهَا. وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: (أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟) قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: (وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟! ) وَذَكَرُوا الْأَنْبِيَاءَ قَالَ: (وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟) قَالُوا: فَنَحْنُ. قَالَ: (وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟! ). قَالُوا: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْجَبُ إِيْمَانًا؟ قَالَ: (قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا) (١). وَقَدْ ذَكَرْتُ سَنَدَ هَذَا الْحَدِيثِ وَالْكَلَامَ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ: وَمَعَ هَذَا فَلَا عِتْصَامَ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهِدَايَةِ، وَالْعُدَّةُ فِي مُبَاعَدَةِ الْغَوَايَةِ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ، وَطَرِيقِ السَّدَادِ، وَحُصُولِ الْمُرَادِ.

(١) أخرجه البزار (٧٢٩٤) من حديث أنس، وقال: غريب من حديث أنس. وحسنه

الألباني بشواهد في «الصحيحة» (٣٢١٥).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

روى ابنُ أبي حاتمٍ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ في قوله تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وإسناده صحيح.

وروي عن أنسٍ أنه قال: لا يتقي العبدُ اللهَ حقَّ تقاته حتى يخزن من لسانه. وقد ذهب سعيدُ بنُ جبير، وأبو العالِيَةِ، والرَّبِيعُ بنُ أنسٍ، وقتادة، ومقاتِلُ بنُ حَيَّان، وزيدُ بنُ أسلم، والسُّدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: لم تُنسخ، ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أن يُجاهدوا في سبيله حَقَّ

جَهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَيَقُومُوا بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ  
وَأَبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ❖ أَي: حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي  
حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَىٰ عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ  
أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَىٰ شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ، فَعِيَاذًا  
بِاللَّهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ. وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ). رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ  
عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،  
وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ) (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قِيلَ ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ ❖  
أَي: بِعَهْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا  
بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ ❖ أَي بِعَهْدِ وَذِمَّةِ. وَقِيلَ: ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ ❖ يَعْنِي:

(١) برقم (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤).



الْقُرْآنَ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ، عَنْ عَلِيٍّ مَرْفُوعًا فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ: (هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ) (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أَمَرَهُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقَةِ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدَّدَةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالْأَمْرِ بِالْإِجْتِمَاعِ وَالْإِئْتِلافِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وُلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ) (٢).

وَقَدْ ضَمِنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ مِنَ الْخَطَا عِنْدَ اتِّفَاقِهِمْ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدَّدَةُ أَيْضًا، وَخِيفَ عَلَيْهِمُ الْإِفْتِرَاقُ وَالْإِخْتِلَافُ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَافْتَرَقُوا عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَمُسَلَّمَةٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال».

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٩٩) ومسلم (١٧١٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، فَإِنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ، وَضَغَائِنٌ وَإِحْنٌ طَالَ بِسَبَبِهَا قَتَلَهُمْ وَالْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ. فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَدَخَلَ فِيهِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ، صَارُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ، مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ اللَّهِ، مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَيَا لِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَأَبْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنْهَا بَأْنَ هَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ.

وَقَدْ ائْتَنَّا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فَعَتَبَ مَنْ عَتَبَ مِنْهُمْ لَمَّا فَضَّلَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِسْمَةِ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةٌ فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟) كَلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ،  
وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ مَرَّ بِمَلَأٍ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَسَاءَهُ مَا هُمْ  
عَلَيْهِ مِنَ الْإِتِّفَاقِ وَالْأَلْفَةِ، فَبَعَثَ رَجُلًا مَعَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَهُمْ  
وَيُذَكِّرَهُمْ مَا كَانَ مِنْ حُرُوبِهِمْ يَوْمَ بَعَاثَ وَتِلْكَ الْحُرُوبِ، فَفَعَلَ، فَلَمْ يَزَلْ  
ذَلِكَ دَابَّهُ حَتَّى حَمِيَتْ نُفُوسُ الْقَوْمِ وَعَظِبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،  
وَتَنَاورُوا، وَنَادَوْا بِشِعَارِهِمْ وَطَلَبُوا أَسْلِحَتَهُمْ، وَتَوَاعَدُوا إِلَى الْحَرَّةِ، فَبَلَغَ  
ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَتَاهُمْ فَجَعَلَ يُسَكِّنُهُمْ وَيَقُولُ: (أَبْدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ  
أُظْهِرْكُمْ؟) وَتَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ، فَندِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ، وَاصْطَلَحُوا  
وَتَعَانَقُوا، وَأَلْقُوا السَّلَاحَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (١).

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا

وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ

(١) أخرجه الطبري (٥/٦٢٧-٦٢٨) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني الثقة، عن زيد

بن أسلم مرسلًا. وله شاهد من مرسل عكرمة بنحوه عند ابن المنذر في «تفسيره»

(١/٣١٤) والواحد في «أسباب النزول» (ص ٢٤٢).

أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ

أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا فِيهَا يَخِلُّونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ

نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أَي: مُتَّصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ، فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: هُمْ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ وَخَاصَّةُ الرُّوَاةِ، يَعْنِي: الْمُجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءَ.

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَةً مِنَ الْأُمَّةِ مُتَّصِدِيَةً لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسَبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَى الْإِيمَانِ) (١). وَفِي رِوَايَةٍ: (وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ) (٢).

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(١)</sup> وَقَالَ: حَسَنٌ. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ مَعَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا فِي أَمَاكِنِهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يَنْهَى هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ تَكُونَ كَالْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَعَنْ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لُحَيٍّ قَالَ: حَجَجْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَامَ حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الظُّهْرِ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيُخْرَجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَبْجَارِي بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءَ، كَمَا يَتَبَجَّرِي الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا

(١) برقم (٢١٦٩).

دَخَلَهُ. وَاللَّهُ - يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ - لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ،  
لَغَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَىٰ أَلَّا يَقُومَ بِهِ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ  
تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفِرْقَةِ، قَالَهُ  
ابْنُ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:  
هُمُ الْمُنَافِقُونَ.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: هَذَا الْوَصْفُ يَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ بِاللَّهِ.  
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يَعْنِي: الْجَنَّةَ،  
مَا كَثُرَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْعُثُونَ عَنْهَا حَوْلًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أَي: هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجُهُ وَبَيِّنَاتُهُ  
﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي: نَكشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ.

(١) برقم (٤٥٩٧)، وصححه الحاكم (١/١٢٨).

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ ❖ أَي: لَيْسَ بِظَالِمٍ لَهُمْ بَلْ هُوَ  
 الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ؛ لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَالَمُ بِكُلِّ  
 شَيْءٍ، فَلَا يَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ:  
 ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ❖ أَي: الْجَمِيعُ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ.  
 ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ ❖ أَي: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،  
 الْحَاكِمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ  
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ  
 خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ١١٠ لَنْ  
 يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ط وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ  
 ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ  
 وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا  
 يَكْفُرُونَ بِشَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكِ بِمَا عَصَوْا  
 وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ١١٢ ❖ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَّةِ فَقَالَ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. قال أبو هريرة وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: خَيْرِ النَّاسِ لِلنَّاسِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَّةِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. وروى الإمام أحمد عن ذرارة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: (خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَبُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ، وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلَهُمْ لِلرَّحِمِ) (١).

وَرَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَالنَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ (٢).

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ، كُلُّ قَرْنٍ بِحَسْبِهِ، وَخَيْرُ قُرُونِهِمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤٣٤) بإسناد ضعيف.

(٢) أحمد (٢٤٦٣) والنسائي في «الكبرى» (١١٠٠٦) والحاكم (٢/٢٩٤).



وَسَطًا ﴿البقرة: ١٤٣﴾ أَي: خِيَارًا ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿الآية.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ، وَسَنَّ ابْنِ مَاجَهَ، وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ، مِنْ رِوَايَةِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (١). وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، وَقَدْ حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَإِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرِّعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ. فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ، يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أُعْطِيَتْ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ)، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هُوَ؟ قَالَ: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيَتْ مَفَاتِيحُ الْأَرْضِ، وَسُمِّيَتْ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَّمِ). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ (٢) مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

(١) أحمد (٢٠٠١٥) والترمذي (٣٠٠١) وابن ماجه (٤٢٨٨) والدارمي (٢٨٠٢)

والحاكم (٨٤ / ٤).

(٢) في المسند (٧٦٣) من حديث علي بن أبي طالب.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ يُنَاسِبُ ذِكْرَهَا هَاهُنَا:

روى البخاري ومسلم عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ). ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ: (سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ) (١).

وروى مسلم في صحيحه عن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لِدَعْتُ: قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: (لَا رُفِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) (٢). فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ أَنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ،

(١) البخاري (٥٨١١) ومسلم (٢١٦).

(٢) الحُمَةُ: سُمُّ ذَوَاتِ السَّمُومِ كَالْعَقْرَبِ وَنَحْوِهَا.

وَالنَّبِيِّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَظَنَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: أَنْظِرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخِرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ ثُمَّ نَهَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاصَّ النَّاسَ فِي أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟) فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَنْطِيطُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ قَالَ: (أَنْتَ مِنْهُمْ) ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرَ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. قَالَ: (سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ) (١).

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢) عَنْ أُسَيْدِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ هُشَيْمٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ (لَا يَرْقُونَ).

(١) مسلم (٢٢٠)

(٢) برقم (٦٥٤١).

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي كِتَابِ السُّنَنِ لَهُ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ، سَمِعْتُ أَبَا أَمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ. وَثَلَاثُ حَيَاتٍ مِنْ حَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ) (١). وَكَذَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ هِشَامِ بْنِ عَمَّارٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عِيَّاشٍ، بِهِ، وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

وروى عبد الرزاق عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفٍ). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: زِدْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ عُمَرُ: حَسْبُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: دَعْنِي، وَمَا عَلَيْكَ أَنْ يُدْخِلَنَا اللَّهُ الْجَنَّةَ كُلَّنَا؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَدْخَلَ خَلْقَهُ الْجَنَّةَ بِكَفِّ وَاحِدٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (صَدَقَ عُمَرُ) (٢).

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٠٣) والترمذي (٢٤٣٧) وابن ماجه (٤٢٨٦) والطبراني (١٢٩/٨) من طرق عن إسماعيل بن عيَّاش به. وله إسناد آخر عن أبي أمامة عند أحمد (٢٢١٥٦) وابن حبان (٧٢٤٦). ذكره ابن كثير في الأصل وقال: وهذا أيضًا إسناد حسن.

(٢) عبد الرزاق (٢٠٥٥٦) وعنه أحمد (١٢٦٩٥)، ورواه ثقات.

نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا  
بِكِرَامَتِهَا عَلَى اللَّهِ، وَأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ  
مَيْمُونٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَمَا تَرْضَوْنَ  
أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟) فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: (أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ  
أَهْلِ الْجَنَّةِ؟) فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: (إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) (١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ). رواه البخاري ومسلم (٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن بريدة، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: (أهل  
الجنة عشرون ومائة صفاً، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً) (٣).

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ  
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فَمَنْ اتَّصَفَ  
مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الشَّانِ عَلَيْهِمُ وَالْمَدْحُ لَهُمْ،

(١) البخاري (٦٥٢٨) ومسلم (٢٢١).

(٢) البخاري (٨٧٦) ومسلم (٨٥٥)، واللفظ لمسلم.

(٣) أحمد (٢٣٠٠٢)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٥٤٦) والدارمي (٢٨٧٧). قال

الترمذي: حديث حسن، وصححه ابن حبان (٧٤٥٩) والحاكم (١/٨٢).

وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾  
[المائدة: ٧٩].

وَلِهَذَا لَمَّا مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ شَرَعَ فِي ذَمِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْيِيبِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أَي: بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَي: قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُبَشِّرًا لَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْكَافِرَةِ الْمُلْحِدِينَ، فَقَالَ: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أذىٌ وَإِنْ يُفْتَلِكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ، فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْبَرَ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَبَلَهُمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ كُلُّهُمْ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ كَسَرَهُمُ الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ، وَسَلَبُوهُمْ مُلْكَ الشَّامِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ، وَلَا تَرَأَى عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ قَائِمَةً بِالشَّامِ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُمْ كَذَلِكَ، وَيَحْكُمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَرَعِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ

أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ،  
وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ  
النَّاسِ﴾ أَي: أَلْزَمَهُمُ اللَّهُ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ أَيَّنَمَا كَانُوا فَلَا يَأْمَنُونَ ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ  
اللَّهِ﴾ أَي: بِدِمَّةٍ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ عَقْدُ الدِّمَّةِ لَهُمْ وَضَرْبُ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ،  
وَإِلْزَامُهُمْ أَحْكَامَ الْمِلَّةِ ﴿وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أَي: أَمَانٌ مِنْهُمْ وَلَهُمْ، كَمَا فِي  
الْمُهَادَنَ وَالْمُعَاهِدَ وَالْأَسِيرَ إِذَا أَمَّنَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أَي: بِعَهْدٍ مِنَ اللَّهِ  
وَعَهْدٍ مِنَ النَّاسِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَاءٌ وَبِغَضِبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: أَلْزَمُوا فَالْتَزَمُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ،  
وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: أَلْزَمُوا قَدْرًا وَشَرْعًا. وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ أَي:  
وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْكِبْرُ وَالْبَغْيُ وَالْحَسَدُ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الذِّلَّةَ  
وَالصَّغَارَ وَالْمَسْكَنَةَ أَبَدًا، مُتَّصِلًا بِذِلَّةِ الْآخِرَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ أَي: إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِ رُسُلِ اللَّهِ وَفِيضُوا لِذَلِكَ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْثِرُونَ الْعِصْيَانَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْغَشْيَانَ لِمَعَاصِي اللَّهِ، وَالْإِعْتِدَاءَ فِي شَرْعِ اللَّهِ، فَعِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾

﴿عِزَّةً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

﴿أُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ

﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

﴿خَالِدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا

﴿صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

﴿وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٧﴾



الْمَشْهُورُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي مَنْ آمَنَ مِنْ  
أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ وَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعِيَةَ  
وَأُسَيْدِ بْنِ سَعِيَةَ وَغَيْرِهِمْ، أَيْ: لَا يَسْتَوِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ بِالذَّمِّ مِنْ أَهْلِ  
الْكِتَابِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أَيْ:  
لَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، بَلْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمْ الْمُجْرِمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أَيْ: قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، مُطِيعَةٌ لَشَرْعِهِ  
مُتَّبِعَةٌ لِنَبِيِّ اللَّهِ، فَهِيَ ﴿قَائِمَةٌ﴾ يَعْنِي مُسْتَقِيمَةٌ ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ  
وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أَيْ: يَقُومُونَ اللَّيْلَ، وَيُكْثِرُونَ التَّهَجُّدَ، وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ فِي  
صَلَوَاتِهِمْ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ  
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَهَؤُلَاءِ هُمْ  
الْمَذْكُورُونَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا  
أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا  
أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل  
عمران: ١٩٩] وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أَيْ: لَا  
يَضِيعُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ يَجْزِيهِمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ:  
لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلٌ عَامِلٍ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرٌ مِنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفْرَةِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ  
 أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لَا يَرُدُّ عَنْهُمْ بَأْسُ اللَّهِ وَلَا عَذَابُهُ إِذَا أَرَادَهُ  
 بِهِمْ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِمَا يُنْفِقُهُ  
 الْكُفَّارُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أَي: بَرْدٌ شَدِيدٌ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْحَسَنُ،  
 وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ عَطَاءٌ: بَرْدٌ وَجَلِيدٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَمُجَاهِدٍ ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أَي: نَارٌ. وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى  
 الْأَوَّلِ، فَإِنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ - سَيِّمًا الْجَلِيدَ - يَحْرِقُ الزُّرُوعَ وَالشَّمَارَ، كَمَا  
 يُحْرِقُ الشَّيْءُ بِالنَّارِ.

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ﴾ أَي: أَخْرَقَتْهُ،  
 يَعْنِي بِذَلِكَ السَّفْعَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرْثٍ قَدْ آنَ جَدَادُهُ أَوْ حَصَادُهُ  
 فدمرتَه وأعدمت ما فيه من ثمرٍ أو زرعٍ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ، فَعَدَمَهُ  
 صَاحِبُهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ. فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمَحِقُ اللَّهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ  
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَثَمَرَتَهَا كَمَا أَذْهَبَ ثَمَرَةَ هَذَا الْحَرْثِ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ.  
 وَكَذَلِكَ هُوَ لَأَبْنَوْهَا عَلَى غَيْرِ أَصْلِ وَعَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمْ  
 اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ

خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأَنْتُمْ أَوْلَاءَ

تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا

وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا لِلَّهِ

عَالِمِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ

سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ بَطَانَةً،

أَي: يُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ وَمَا يُضْمِرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَالْمُنَافِقُونَ

بِجُهِدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ لَا يَأْلُونَ الْمُؤْمِنِينَ خَبَالًا، أَي: يَسْعَوْنَ فِي مُخَالَفَتِهِمْ

وَمَا يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَبِمَا يَسْتَطِيعُونَهُ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، وَيُودُّونَ

مَا يُعْنِتُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِيْطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أَي: مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ  
 الْأَدْيَانِ، وَبِيْطَانَةُ الرَّجُلِ: هُمْ خَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى دَاخِلِ أَمْرِهِ.  
 وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا  
 بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِيْطَانَتَانِ: بِيْطَانَةٌ  
 تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبِيْطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ،  
 وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ) (١).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ أَبِي الدَّهْقَانَ قَالَ: قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ  
 الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَاهُنَا غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ، حَافِظٌ كَاتِبٌ،  
 فَلَوْ اتَّخَذْتَهُ كَاتِبًا؟ فَقَالَ: قَدْ اتَّخَذْتُ إِذَا بِيْطَانَةٌ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. فَفِي هَذَا  
 الْأَثَرِ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الدِّمَّةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ  
 الَّتِي فِيهَا اسْتِطَالَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَاطِّلَاعٌ عَلَى دَوَاخِلِ أُمُورِهِمُ الَّتِي  
 يُخْشَى أَنْ يُفْشَوْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا  
 يَأْتُونَكَمْ خَبَايَا وَدُوَا مَاعِنْتُمْ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ  
 أَكْبَرُ﴾ أَي: قَدْ لَاحَ عَلَى صَفْحَاتِ وُجُوهِهِمْ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ

(١) البخاري (٧١٩٨).

الْعَدَاوَةِ، مَعَ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ  
وَأَهْلِهِ، مَا لَا يَخْفَى مِثْلُهُ عَلَى لَيْبٍ عَاقِلٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ..

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَاتِنْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾  
أَيُّ: أَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - تُحِبُّونَ الْمُنَافِقِينَ مِمَّا يُظْهِرُونَ لَكُمْ مِنَ  
الْإِيمَانِ، فَتُحِبُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ، لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا  
﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيُّ: لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ،  
وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشَّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحِيرَةُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيُّ: بَكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ، وَبِمَا  
مَضَى مِنَ الْكِتَابِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ، فَانْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ  
لَهُمْ، مِنْهُمْ لَكُمْ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾  
وَالْأَنَامِلُ: أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ. وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ  
الْإِيمَانَ وَالْمُودَّةَ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وَذَلِكَ أَشَدُّ الْغَيْظِ  
وَالْحَقِّقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَوْتُوْا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ:

مَهْمَا كُنتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَغِيظُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُتِمُّ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُكْمِلُ دِينِهِ، وَمُعَلِّ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ، فَمَوْتُوْا أَنْتُمْ بَغِيظُكُمْ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٥﴾ أَيُّ: هُوَ عَلِيمٌ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُكُمْ، وَتُكِنُّهُ سَرَائِرُكُمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنَّ يُرِيكُمْ خِلَافَ مَا تَوَمَّلُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا، فَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿١٠٤﴾ إِنَّ تَمَسُّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴿١٠٥﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ دَالَّةٌ عَلَىٰ شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خِصْبٌ وَنَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ، وَكَثُرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ، سَاءَ ذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ. وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ سَنَةٌ - أَيُّ: جَذَبَ - أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ، لِمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ، فَرِحَ الْمُنَافِقُونَ بِذَلِكَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مُخَاطَبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿١٠٤﴾ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٠٥﴾ يُرْشِدُهُمْ تَعَالَىٰ إِلَىٰ السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَىٰ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ،

وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَلَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أَحَدٍ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَبَيَانِ صَبْرِ الصَّابِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا

وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون ﴿١٣٢﴾ ولقد نصركم الله ببدْرٍ وأنتم أذلة

فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣٣﴾

المراد بهذه الوقعة يوم أحدٍ عند الجُمهورِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ. وَهُوَ قَوْلُ غَرِيبٍ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ.

وَكَانَتْ وَقَعَةُ أَحَدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهِجْرَةِ. وَكَانَ سَبَبُهَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَسَلِمَتِ الْعَيْرُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا رَجَعَ قَفَلُهُمْ إِلَى مَكَّةَ

قَالَ أَنْبَاءُ مَنْ قُتِلَ وَرُؤُسَاءُ مَنْ بَقِيَ لِأَبِي سُفْيَانَ: ارْصُدْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ، وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالْأَحَابِيثَ وَأَقْبَلُوا فِي قَرِيبٍ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ أَحَدِ تَلْقَاءِ الْمَدِينَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ عَمْرٍو، وَاسْتَشَارَ النَّاسَ: أَيُخْرِجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ؟ فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَالْمَقَامِ بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْبَسٍ وَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرَّجَالُ فِي وُجُوهِهِمْ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ.

وَأَشَارَ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَبَسَ لِأُمَّتِهِ (١) وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ نَدِمَ بَعْضُهُمْ وَقَالُوا: لَعَنَّآ اسْتَكْرَهْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ شِئْتَ أَنْ نَمْكُثَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لِأُمَّتِهِ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ) (٢).

(١) اللأمة: لباس الحرب وأدواته.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٧٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٧٦٠٠) والدارمي (٢٢٠٥) من

حديث جابر بنحوه. وأخرج الحاكم (١٢٩/٢) من حديث ابن عباس بنحوه.



فَسَارَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَ بِالشُّوْطِ رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فِي ثُلُثِ الْجَيْشِ مُغْضَبًا؛ لِكَوْنِهِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَوْلِهِ، وَقَالَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ: لَوْ نَعْلَمُ الْيَوْمَ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَرَاكُمْ تُقَاتِلُونَ الْيَوْمَ. وَاسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرًا حَتَّى نَزَلَ الشُّعْبَ مِنْ أَحَدٍ فِي عَدْوَةِ الْوَادِي. وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أَحَدٍ وَقَالَ: (لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ) (١).

وَتَهَيَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْقِتَالِ وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَمَرَ عَلَى الرُّمَاءِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ، وَالرُّمَاءُ يَوْمَئِذٍ خَمْسُونَ رَجُلًا فَقَالَ لَهُمْ: (انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلَا نُؤْتِينَ مِنْ قِبَلِكُمْ. وَالزُّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ النُّوبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ) (٢).

وظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، وَأَعْطَى اللُّوَاءَ مُضْعَبَ بْنِ عُمَيْرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ. وَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ الْغِلْمَانِ يَوْمَئِذٍ وَأَرْجَاءَ آخِرِينَ، حَتَّى أَمْضَاهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ بِقَرِيبٍ مِنْ سِتِّينَ.

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/٦٥).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/٦٦) وأخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بنحوه.

وَتَعَبَّاتُ قُرَيْشٍ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَمَعَهُمْ مِائَتَا فَرَسٍ قَدْ جَنَبَوْهَا، فَجَعَلُوا عَلَى مَيْمَنَةِ الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ: وَعَلَى الْمَيْسِرَةِ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَدَفَعُوا إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ اللُّوَاءَ. ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوَاضِعِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ

لِلْقِتَالِ﴾ أَي: تُنَزِّلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ مَيْمَنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ:

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ، وَمَا نُحِبُّ

أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ (١).

(١) البخاري (٤٠٥١) ومسلم (٢٥٠٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

أَي: يَوْمَ بَدْرِ، وَكَانَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ وَافَقَ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَهُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَدَمَعَ فِيهِ الشُّرْكَ وَخَرَّبَ مَحِلَّهُ، هَذَا مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فِيهِمْ فَرَسَانٍ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا، وَالْبَاقُونَ مُشَاةً، لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الْعَدَدِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ الْعَدُوُّ يَوْمَئِذٍ مَا بَيْنَ التَّسْعِمِائَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي سَوَابِغِ الْحَدِيدِ وَالْبَيْضِ (١)، وَالْعُدَّةِ الْكَامِلَةِ وَالْخَيُْولِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْحُلِيِّ الزَّائِدِ، فَأَعَزَّ اللَّهُ رَسُولَهُ، وَأَظْهَرَ وَحْيَهُ وَتَزَيَّلَهُ، وَبَيَّضَ وَجْهَ النَّبِيِّ وَقَبِيلَهُ، وَأَخْزَى الشَّيْطَانَ وَجِيلَهُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِزْبِهِ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾

أَي: قَلِيلٌ عَدَدُكُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وُلِّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ

(١) البيض: أي السيوف.

الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ ﴿[التوبة: ٢٥].﴾

وَبَدْرٌ مَحَلَّةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، تُعْرَفُ بِبَيْرِهَا، مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ رَجُلٍ  
حَفَرَهَا يُقَالُ لَهُ: بَدْرُ بْنُ النَّارِينِ. قَالَ الشَّعْبِيُّ: بَدْرٌ بَيْرٌ لِرَجُلٍ يُسَمَّى بَدْرًا.  
وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿أَي: تَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ

الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا

يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ

اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا

خَآبِيَيْنَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ

ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴿﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْوَعْدِ: هَلْ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ يَوْمَ أُحُدٍ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأَنْفَالِ: ٩] فَالْجَوَابُ: أَنَّ التَّنْصِيفَ عَلَى الْأَلْفِ هَاهُنَا لَا يُنَافِي الثَّلَاثَةَ الْأَلْفَ فَمَا فَوْقَهَا، لِقَوْلِهِ: ﴿مُرَدِّينَ﴾ [الأَنْفَالِ: ٩] بِمَعْنَى يَرُدُّهُمْ غَيْرُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمُ الْوَفُؤُ أَوْ أُخْرُ مِثْلُهُمْ. وَهَذَا السِّيَاقُ شَبِيهُ بِهَذَا السِّيَاقِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلِّغْ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يَعْنِي: تَصْبِرُوا عَلَى مُصَابِرَةِ عَدُوِّكُمْ وَتَتَّقُونِي وَتَطِيعُوا أَمْرِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةَ: أَي مِّن وَجْهِهِمْ هَذَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: أَي مِّنْ غَضَبِهِمْ هَذَا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِّنْ سَفَرِهِمْ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أَي: مُعَلِّمِينَ بِالسِّيَمَاءِ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ سِيَمَا الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ  
بَدْرٍ الصُّوفَ الْأَبْيَضَ، وَكَانَ سِيَمَاهُمْ أَيْضًا فِي نَوَاصِي خَيْلِهِمْ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أَي: بِسِيَمَا الْقِتَالِ، وَقَالَ مَكْحُولٌ:  
﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بِالْعَمَائِمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أَي: وَمَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلَمَكُمْ بِإِنْزَالِهَا إِلَّا بِشَارَةً لَكُمْ وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِكُمْ وَتَطْمِينًا،  
وَإِلَّا فَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، الَّذِي لَوْ شَاءَ لَأَنْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِدُونِكُمْ،  
وَمِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى قِتَالِكُمْ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ  
بِالْقِتَالِ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحْ بِاللَّهُمْ﴾ [محمد: ٥، ٤].

وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ وَمَا  
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٤﴾ أَي: هُوَ ذُو الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ،  
وَالْحِكْمَةِ فِي قَدْرِهِ وَالْإِحْكَامِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: أَمَرَكُمْ بِالْجِهَادِ  
وَالْجِلَادِ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ، وَلِهَذَا ذَكَرَ جَمِيعَ

الْأَقْسَامِ الْمُمْكِنَةِ فِي الْكُفَّارِ الْمُجَاهِدِينَ فَقَالَ: ﴿لَيَقَطَعَنَّ طَرْفًا﴾ أَي: لِيُهْلِكَ أُمَّةً ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أَي: يُخْزِيهِمْ وَيَرُدَّهُمْ بِغَيْظِهِمْ لَمَّا لَمْ يَنَالُوا مِنْكُمْ مَا أَرَادُوا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا﴾ أَي: يَرْجِعُوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أَي: لَمْ يَحْصُلُوا عَلَىٰ مَا أَمَّلُوا.

ثُمَّ اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَي: بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيَّ، كَمَا قَالَ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَي: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِي عِبَادِي إِلَّا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ بَقِيَّةَ الْأَقْسَامِ فَقَالَ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أَي: يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَمْرِوٍّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْفَجْرِ: (اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا)، بَعْدَ مَا يَقُولُ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ الْعَنْ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنْ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ). فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَتَيَّبَ عَلَيْهِمْ كُلَّهُمْ (٢). قَالَ: وَهَدَاهُمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ (٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: الْجَمِيعُ مِلْكٌ لَهُ، وَأَهْلُهُمَا عبيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَي: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) البخاري (٤٠٦٩).

(٢) أحمد (٥٦٧٤).

(٣) أحمد (٥٨١٢).



﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ وَمَن يُغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ

يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ

مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ

أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِي الرِّبَا وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً،

كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حَلَّ أَجَلَ الدَّيْنِ: إِمَّا أَنْ تَقْضِي وَإِمَّا أَنْ

تُرْبِي، فَإِنْ قَضَاهُ وَإِلَّا زَادَهُ فِي الْمُدَّةِ وَزَادَهُ الْآخِرَ فِي الْقَدْرِ، وَهَكَذَا كُلَّ  
عَامٍ، فَرَبَّمَا تَضَاعَفَ الْقَلِيلُ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا مُضَاعَفًا. وَأَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ  
بِالتَّقْوَى لَعَلَّهُمْ يُفْلِحُونَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَى ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِالنَّارِ وَحَذَّرَهُمْ  
مِنْهَا، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ  
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. ﴿

ثُمَّ نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ  
الْقُرْبَاتِ، فَقَالَ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا  
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي: كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ. وَهَذِهِ  
الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ  
عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ  
وَالضَّرَّاءِ﴾ أَي: فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَالصِّحَّةِ  
وَالْمَرَضِ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، كَمَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ  
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَا يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ

عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَاضِيهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْكٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أَي: إِذَا ثَارَ بِهِمُ الْغَيْظُ كَظْمُوهُ، بِمَعْنَى: كَتَمُوهُ فَلَمْ يَعْمَلُوهُ، وَعَفَوْا مَعَ ذَلِكَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ) (١).

وَعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي. قَالَ: (لَا تَغْضَبْ). قَالَ الرَّجُلُ: فَفَكَرْتُ حِينَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ. انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ (٢).

وَعَنْ أَبِي وَائِلِ الصَّنَعَانِيِّ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ أَغْضَبَهُ، فَلَمَّا أَنْ غَضِبَ قَامَ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْنَا

(١) البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣١٧١) بإسناد صحيح. وهو في البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة دون قوله: «ففكرت...» إلخ.

وَقَدْ تَوَضَّأَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي عَطِيَّةَ - هُوَ ابْنُ سَعْدِ السَّعْدِيِّ،  
وَقَدْ كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ،  
وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا أُغْضِبَ أَحَدُكُمْ  
فَلْيَتَوَضَّأْ). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْ جَرَعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جَرَعَةٍ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لَلَّهِ إِلَّا مَلَأَ جَوْفُهُ  
إِيمَانًا). انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ (٢)، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ لَيْسَ فِيهِ مَجْرُوحٌ، وَمَتْنُهُ حَسَنٌ.  
وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ  
عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، حَتَّى يُخِيرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ  
شَاءَ). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ (٣). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(١) أخرجه أحمد (١٧٩٨٥) وأبو داود (٤٧٨٤) بإسناد فيه ضعف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٢).

(٢) «مسند أحمد» (٣٠١٥)، وفي إسناده نوح بن جَعُونَةَ السُّلَمِيُّ، قيل: هو نوح بن أبي مريم، فإن كان كذلك فهو متروكٌ متَّهمٌ بالكذب، وإلا فكما قال المؤلف: ليس في الإسناد مجروح. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر عند أحمد (٦١١٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣١٨) وابن ماجه (٤١٨٩) بنحوه.

(٣) أخرجه أحمد (١٥٦٣٧) وأبو داود (٤٧٧٧) والتِّرْمِذِيُّ (٢٠٢١).

وقوله: ﴿وَالْكٰظِمِيْنَ الْغَيْظِ﴾ \* أي: لا يُعْمِلُونَ غَضَبَهُمْ فِي النَّاسِ، بَلْ يَكْتُمُونَ عَنْهُمْ شَرَّهُمْ، وَيَحْتَسِبُونَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿وَالْعَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ﴾ \* أي: مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ مَوْجِدَةٌ عَلَى أَحَدٍ، وَهَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ \* فهذا مِنْ مَقَامَاتِ الْإِحْسَانِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ \* أي: إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ أَتْبَعُوهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

(١) أخرجه أحمد (٩٠٠٨) ومسلم (٢٥٨٨) والترمذي (٢٠٢٩) من حديث أبي هريرة بدون ذكر القسم. وأخرجه أحمد (١٨٠٣١) من حديث أبي كبشة الأنماري بذكر القسم، ولكن الثالثة فيها: «ولا يفتح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فتح الله له بابَ فقرٍ».

عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ  
 عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ عَزَّ  
 وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي  
 ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ عَزَّ  
 وَجَلَّ: عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ  
 غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١).

وَيَتَأَكَّدُ الْوُضُوءَ وَصَلَاةَ رَكَعَتَيْنِ عِنْدَ التَّوْبَةِ، لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ  
 حَنْبَلٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ مِنْهُ، وَإِذَا حَدَّثَنِي عَنْهُ غَيْرِي  
 اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَقْتُهُ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَنِي -  
 وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا  
 فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غَفَرَ  
 لَهُ) (٢). وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرِيقَهُ وَالْكَلامَ عَلَيْهِ مُسْتَقْصَى فِي «مُسْنَدِ أَبِي بَكْرٍ  
 الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ أَمِيرِ

(١) أخرجه أحمد (٧٩٤٨) والبخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨)، واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه أحمد (٢) وأبو داود (١٥٢١) والترمذي (٤٠٦)، وصححه ابن حبان (٦٢٣).

الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ خَلِيفَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَمِمَّا يَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الْحَدِيثِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَسْبِغُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) (١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ تَوَضَّأَ لَهُمْ وَضُوءَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (٢).

فَقَدْ ثَبَتَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، عَنْ سَيِّدِ الْأَوْلِيَيْنِ وَالْآخِرِينَ وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْمُبِينُ مِنْ أَنَّ الْإِسْتِغْفَارَ مِنَ الذَّنْبِ يَنْفَعُ الْعَاصِينَ.

(١) مسلم (٢٣٤).

(٢) البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَي: لَا يَغْفِرُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَي: تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَنْ قَرِيبٍ، وَلَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَيُصِرُّوا عَلَيْهَا غَيْرَ مُقْلِعِينَ عَنْهَا، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ الذَّنْبُ تَابُوا عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَكَقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ - وَهُوَ عَلَى الْمُنْبِرِ -: (ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاعْفِرُوا يُعْفَرَ لَكُمْ، وَيُلْ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيُلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى - بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ -: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ﴾ أَي: جَزَاءُهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ

(١) «مسند أحمد» (٦٥٤١)، وأخرجه أيضًا البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وإسناده حسن.



وَجَنَاتٍ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ  
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: مَا كَثِيرَ فِيهَا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ يَمْدَحُ اللهُ تَعَالَى  
 بِذَلِكَ الْجَنَّةِ.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عِقْبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) إِنْ

يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

نُذِرُوا لَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ

شُهَدَاءً ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠) وَلِيَمِحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَيَمَحَقَ الْكُفْرِينَ﴾ (١٤١) أَمَّ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ

مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣).

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ

مِنْهُمْ سَبْعُونَ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أَي: قَدْ جَرَى نَحْوَ هَذَا عَلَى

الْأُمَّمَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ  
وَالدَّائِرَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ  
عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ فِيهِ بَيَانٌ لِلْأُمُورِ عَلَى  
جَلِيلَتِهَا، وَكَيْفَ كَانَ الْأَمُّ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَعْدَائِهِمْ ﴿وَهُدَى وَمَوْعِظَةٌ﴾  
يَعْنِي: الْقُرْآنُ فِيهِ خَبْرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَ ﴿وَهُدَى﴾ لِقُلُوبِكُمْ وَ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾  
أَي: زَاجِرٌ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْثِمِ.

ثُمَّ قَالَ مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أَي: لَا تَضَعُفُوا بِسَبَبِ مَا جَرَى  
﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ لَكُمْ  
أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ. ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أَي: إِنْ  
كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ وَقُتِلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ  
ذَلِكَ مِنْ قَتْلِ وَجِرَاحٍ ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَي: نُدِيلُ  
عَلَيْكُمْ الْأَعْدَاءَ تَارَةً، وَإِنْ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَكُمْ لِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمِ؛  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَي: لِنَرَى مَنْ يَصْبِرُ عَلَى  
مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يَعْنِي: يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَيُبَدِّلُونَ

مُهَجِّهِمْ فِي مَرْضَاتِهِ. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ١٤٠ ﴿وَلِيَمْحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾  
 أَي: يُكْفِّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْ كَانَ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَإِلَّا رُفِعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ  
 بِحَسَبِ مَا أُصِيبُوا بِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ أَي: فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا  
 بَعَاثُوا وَيَطْرُقُوا فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دَمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَمَحْقِهِمْ وَفَنَائِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا  
 مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَي: أَحَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تُبْتَلُوا بِالْقِتَالِ  
 وَالشَّدَائِدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ  
 وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ  
 الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] وَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾  
 وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾  
 [العنكبوت: ١-٣].

وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ  
 الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَي: لَا يَحْصُلُ لَكُمْ دُخُولُ  
 الْجَنَّةِ حَتَّى تُبْتَلُوا وَيَرَى اللَّهُ مِنْكُمْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَالصَّابِرِينَ  
 عَلَى مُقَاوَمَةِ الْأَعْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أَي: قَدْ كُنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ تَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَحَرَّقُونَ عَلَيْهِمْ، وَتَوَدُّونَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَمُصَابِرَتَهُمْ، فَهَا قَدْ حَصَلَ لَكُمْ الَّذِي تَمَنَيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ، فَدُونَكُمْ فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ) (١).

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يَعْنِي: الْمَوْتَ شَاهَدْتُمُوهُ فِي لَمَعَانِ السُّيُوفِ وَحَدِّ الْأَسِنَّةِ وَاشْتِبَاكِ الرَّمَاحِ، وَصُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٤) ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ دَرِييُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا  
 ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ  
 قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى  
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَإِنَّهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ  
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ .

لَمَّا انْهَزَمَ مَنِ انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، نَادَى  
 الشَّيْطَانُ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. وَرَجَعَ ابْنُ قَمِيئَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لَهُمْ:  
 قَتَلْتُ مُحَمَّدًا. وَإِنَّمَا كَانَ قَدْ ضَرَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَشَجَّهَ فِي رَأْسِهِ، فَوَقَعَ  
 ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَاعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قُتِلَ، وَجَوَزُوا  
 عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَدْ قَصَّ اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَحَصَلَ  
 وَهْنٌ وَضَعْفٌ وَتَأَخَّرُ عَنِ الْقِتَالِ، فَنِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ:  
 ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَي: لَهُ أُسُوءَةٌ بِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ  
 وَفِي جَوَازِ الْقَتْلِ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ: ﴿فَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ  
 أَلْقَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أَي: رَجَعْتُمُ الْقَهْقَرَى ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ

يُضِرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٤٠﴾ أَي: الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ وَقَاتَلُوا  
عَنْ دِينِهِ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا.

وقد ثبت في الصَّحاحِ وَالْمَسَانِدِ وَالسُّنَنِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ الْإِسْلَامِ  
مَنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ تُفِيدُ الْقَطْعَ: أَنَّ الصِّدِّيقَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ  
لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي مُسْنَدِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ  
وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وروى البُخَارِيُّ عن عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ، رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ، أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ  
الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَتِيَّمَمَ رَسُولُ اللَّهِ  
ﷺ وَهُوَ مُغْشَى بِثَوْبٍ حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ﷺ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ  
وَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ  
مَوْتَيْنِ؛ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا.

قال الزُّهْرِيُّ: وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ  
وَعُمَرُ يُحَدِّثُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ فَأَبِي عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ  
النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكَوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ  
مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قَالَ: فَوَاللَّهِ لَكَانَ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا النَّاسُ مِنْهُ كُلُّهُمْ، فَمَا سَمِعَهَا بَشَرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا تَلَاهَا.

وَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقَرْتُ حَتَّى مَا تُقَلِّبُنِي رِجْلَايَ وَحَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُوَجَّلًا﴾ أَي: لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كِنَبَأًا مُوَجَّلًا﴾ كَقَوْلِهِ ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنَ الْمُعْمَرِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] وَكَقَوْلِهِ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢]. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجَبْنَاءِ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ الْإِقْدَامَ وَالْإِحْجَامَ لَا يَنْقُصُ مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يَزِيدُ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أَي: مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَدْ نَالَ مِنْهَا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ، وَمَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٢-٤٤٥٤).

مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ ﴿[الإسراء: ١٩، ١٨] وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ أَي: سَنُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى -مُسْلِيًا لِلْمُسْلِمِينَ عَمَّا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ- : ﴿وَكَايِنٍ مَنِ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: كَمْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ وَقَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

قَالَ الْحَسَنُ: ﴿رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ ﴿٢١﴾ أَي: عُلَمَاءُ كَثِيرٌ، وَعَنْهُ أَيْضًا: عُلَمَاءُ صَبْرٌ أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءٌ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ بَعْضِ نَحَاةِ الْبَصْرَةِ: أَنَّ الرَّبِّيَّيْنَ هُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: وَرَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ فَقَالَ: لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ رَبِّيُونَ، بِفَتْحِ الرَّاءِ.



قَالَ قَتَادَةَ: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ يَقُولُ: فَمَا ارْتَدُّوا عَنْ نُصْرَتِهِمْ وَلَا عَنْ دِينِهِمْ، أَنْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللَّهِ حَتَّى لَحِقُوا بِاللَّهِ. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: وَمَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ﴾ ١٤٦ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَي: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَجِيرَى إِلَّا ذَلِكَ. ﴿فَعَانَتْهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أَي: النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْعَاقِبَةَ ﴿وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أَي: جَمَعَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ هَذَا، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ١٤٩ ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۗ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ١٥٠ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۗ وَمَا وَهُمْ إِلَّا النَّارُ ۗ وَيَسْ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾

﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ  
 بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ  
 وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَن  
 يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ  
 صَرَّفَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ  
 ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا  
 تَكُونُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي  
 أُخْرَبِكُمْ فَأَتْبَبَكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ  
 مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ  
 طَاعَتَهُمْ تُورِثُ الرَّدَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ تُطِيعُوا  
 الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَمُؤَالَاتِهِ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ:  
 ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانِكُمْ<sup>ط</sup> وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾. ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَلْقَى فِي  
 قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ وَالذَّلَّةَ لَهُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ، مَعَ مَا  
 ادَّخَرَهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فَقَالَ: ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا<sup>ط</sup>  
 وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ: (أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ  
 بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا،  
 وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ  
 خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) (١).

وروى أحمد عن أبي أمامة؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (وَنُصِرْتُ  
 بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْدِفُهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي) (٢).

(١) البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢١٣٧) بإسناد حسن.

وَقَوْلُهُ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ﴿أَي: أَوَّلَ النَّهَارِ﴾ إِذْ تَحْسُونَهُم ﴿أَي: تَقْتُلُونَهُمْ﴾ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ﴿أَي: بِتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَشْلُ: الْجُبْنُ، ﴿وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كَمَا وَقَعَ لِلرُّمَاءِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ وَهُوَ الظُّفْرُ مِنْهُمْ. ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وَهُمْ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَزِيمَةَ، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثُمَّ آدَأَهُمْ عَلَيْكُمْ لِيُخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ ﴿أَي: عَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِكثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَعُدْدِهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعُدْدِهِمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

روى البخاريُّ عن البراءِ قال: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاءِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ جُبَيْرٍ - وَقَالَ: (لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا). فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْنَا النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ، رَفَعْنَ عَن سُوقِهِنَّ، وَقَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيْمَةُ

الغنيمة! فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي ﷺ ألا تبرحوا. فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: (لا تحيوه). فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: (لا تحيوه). فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك! فقال أبو سفيان: اعل هبل! فقال النبي ﷺ: (أحيوه). قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل). فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: (أحيوه). قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم). قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني (١).

وقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ روى البخاري عن أنس بن مالك: أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال رسول الله ﷺ، لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهزم الناس، فقال: اللهم إني

(١) البخاري (٤٠٤٣).

أَعْتَدْرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ؟ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ! فَمَضَى فُقُتِلَ، فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِنَانِهِ أَوْ بِشَامَةِ وَبِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَةٍ بِهِمْ. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ بِنَحْوِهِ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ أَي: صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ أَي: فِي الْجَبَلِ هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ. ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ أَي: وَأَنْتُمْ لَا تَلُؤُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الدَّهْشِ وَالْخَوْفِ وَالرُّعْبِ ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ﴾ أَي: وَهُوَ قَدْ خَلَقْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْكِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَإِلَى الرَّجْعَةِ وَالْعُودَةِ وَالْكَرَّةِ.

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ وَبَقِيَ مَعَهُ أَحَدٌ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ، فَلَحِقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ: (أَلَا أَحَدٌ لَهُؤُلَاءِ؟)

(١) البخاري (٤٠٤٨) ومسلم (١٩٠٣).

فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: (كَمَا أَنْتَ يَا طَلْحَةُ). فَقَالَ رَجُلٌ  
مِنَ الْأَنْصَارِ: فَأَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَاتَلَ عَنْهُ، ثُمَّ قُتِلَ الْأَنْصَارِيُّ... إِلَى  
أَنْ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ لِهَؤُلَاءِ؟) فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا. فَقَاتَلَ  
مِثْلَ قِتَالِ جَمِيعِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَأُصِيبَتْ أَنَامِلُهُ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَاءً،  
وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ، يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: جُرْحٌ وَجْهٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتْ  
الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ  
عَلِيِّ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْمَاءَ لَا  
يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةً حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ، حَتَّى إِذَا صَارَ رَمَادًا  
أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ<sup>(٣)</sup>.

(١) «دلائل النبوة» (٣/٢٣٦-٢٣٧). وأخرجه أيضًا النسائي (٣١٤٩). وهو حديث

حسن بشواهده. انظر: «الصحيحة» للألباني (٢٧٩٦).

(٢) البخاري (٤٠٦٣).

(٣) البخاري (٢٩١١) ومسلم (١٧٩٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّبَعَكُمْ عَمَّا يَعْمِرُ﴾ ﴿١٥٤﴾ أَي: فَجَازَاكُمْ غَمًّا عَلَى غَمِّ كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: نَزَلْتُ بِبَنِي فُلَانٍ، وَنَزَلْتُ عَلَى بَنِي فُلَانٍ. وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: أَنَّ الْغَمَّ الْأَوَّلَ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ، وَالثَّانِي حِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمَ مِنَ الْهَزِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ ﴿١٥٥﴾ أَي: عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بَعْدُوكُمْ ﴿١٥٦﴾ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴿١٥٧﴾ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ ﴿١٥٨﴾ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٩﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ ط  
وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ط  
يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ط  
يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ط  
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى



الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ

عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنَا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ، وَهُوَ النَّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُسْتَلْتِمُوا السَّلَاحِ فِي حَالِ هَمِّهِمْ وَغَمِّهِمْ، وَالنَّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ، فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال أبو طلحة: غَشِينَا النَّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ. قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَأَخَذُهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخَذُهُ. رواه البخاري (١).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ، وَهُمْ الْجَازِمُونَ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَيُنْجِزُ لَهُ مَأْمُولَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي: لَا يَغْشَاهُمُ النَّعَاسُ مِنَ الْقَلْقِ وَالْجَزَعِ

(١) برقم (٤٥٦٢).

وَالْخَوْفِ ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ﴿كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٧]. وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ، اعْتَقَدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةَ أَنَّهَا الْفَيْصَلَةُ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وَأَهْلُهُ، هَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْفَظِيغَةِ، تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّيْعَةُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ ﴿فِي تِلْكَ الْحَالِ: ﴿هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَخْفَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ ﴿أَي: يُسْرُونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ ﴿أَي: هَذَا قَدْرٌ مُّقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحُكْمٌ حَتْمٌ لَا يُحَادُّ عَنْهُ، وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ﴿أَي: يَخْتَبِرُكُمْ بِمَا جَرَىٰ عَلَيْكُمْ، وَلِيَمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُظْهِرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ

وَالْمُنَافِقِ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾  
 أَي: بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا  
 اسْتَرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أَي: بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ،  
 كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ  
 مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أَي: عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ.  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أَي: يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَحْلُمُ عَنْ خَلْقِهِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ

وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ

تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

يُنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ،  
 الدَّالِّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْأَسْفَارِ وَفِي الْحُرُوبِ: لَوْ  
 كَانُوا تَرَكُوا ذَلِكَ لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ. فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا  
 كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴿أَيُّ: عَنْ إِخْوَانِهِمْ ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ:  
 سَافَرُوا لِلتَّجَارَةِ وَنَحْوِهَا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى ﴾ أَيُّ: فِي الْغَزْوِ ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا ﴾  
 أَيُّ: فِي الْبَلَدِ ﴿مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا ﴾ أَيُّ: مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ وَلَا قُتِلُوا فِي الْغَزْوِ.  
 وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيُّ: خَلَقَ هَذَا الْإِعْتِقَادَ  
 فِي نَفْسِهِمْ لِيَزِدُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتِهِمْ وَقَتْلِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أَيُّ: بِيَدِهِ الْخَلْقَ وَإِلَيْهِ  
 يَرْجِعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدْرِهِ، وَلَا يَزَادُ فِي عُمُرِ  
 أَحَدٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ:  
 وَعِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ  
 مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَالْمَوْتَ أَيْضًا -  
 وَسَبِيلَةٌ إِلَى نَيْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا  
 وَجَمْعِ حُطَامِهَا الْفَانِي.

ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،  
فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَقَالَ: ﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ  
لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا﴾

مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ

لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ وَ مَنْ يُغَلَّ يَأْتِ بِمَا

غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ

وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِم بِمَا يَعْمَلُونَ

﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطَبًا رَسُولَهُ ﷺ، مُمْتَنًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبُهُ عَلَى أُمَّتِهِ، الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ، التَّارِكِينَ لِزَجْرِهِ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظَهُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَكَ لَهُمْ لَيْنًا لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكَ وَبِهِمْ.

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ يَقُولُ: فَبِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ. وَ"مَا" صَلَّةٌ، وَالْعَرَبُ تَصِلُهَا بِالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وَبِالنَّكِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وَهَاهُنَا قَالَ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضْنَا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الْفَظُّ: الْغَلِيظُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾

أَيُّ: لَوْ كُنْتَ سَيِّءَ الْكَلَامِ قَاسِي الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَانْفَضُّوا عَنْكَ وَتَرَكَوكَ،  
 وَلَكِنَّ اللَّهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ، وَأَلَانَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ، كَمَا قَالَ عَبْدُ  
 اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّهُ رَأَى صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: أَنَّهُ لَيْسَ  
 بَفِظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ،  
 وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ  
 إِذَا حَدَّثَ، تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ لِيَكُونُوا فِيمَا يَفْعَلُونَهُ أَنْشَطَ لَهُمْ، كَمَا شَاوَرَهُمْ  
 يَوْمَ بَدْرٍ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْعِيرِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا  
 عُرْضَ الْبَحْرِ لَقَطَعْنَاهُ مَعَكَ، وَلَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرِّكَ الْغَمَادِ لَسِرْنَا مَعَكَ،  
 وَلَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا  
 هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ نَقُولُ: اذْهَبْ، فَنَحْنُ مَعَكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ  
 وَعَنْ شِمَالِكَ مُقَاتِلُونَ.

وَشَاوِرْهُمْ - أَيُّضًا - أَيْنَ يَكُونُ الْمَنْزِلُ؟ حَتَّى أَشَارَ الْمُنْذِرُ بِنُورِهِ،  
 بِالتَّقَدُّمِ إِلَى أَمَامِ الْقَوْمِ.

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

وَشَاوَرَهُمْ فِي أَحَدٍ فِي أَنْ يَقْعُدَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ يَخْرُجَ إِلَى الْعَدُوِّ،  
فَأَشَارَ جَمُورُهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ.

وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي مُصَالِحَةِ الْأَحْزَابِ بِثُلْثِ ثَمَارِ الْمَدِينَةِ  
عَامِئِدٍ، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ السَّعْدَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ  
عُبَادَةَ، فَتَرَكَ ذَلِكَ.

وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي أَنْ يَمِيلَ عَلَى ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لَهُ  
الصَّدِيقُ: إِنَّا لَمْ نَجِيءَ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، فَأَجَابَهُ إِلَى مَا قَالَ.  
وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: (أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ﴾ أَيُّ: إِذَا شَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ  
وَعَزَمْتَ عَلَيْهِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۗ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي  
يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ:  
﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فَقَالَ:  
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ  
وَاحِدٍ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَخُونَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: فَقَدُوا قَطِيفَةَ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالُوا: لَعَلَّ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ﴾ أَي: يَخُونَ. وَعَنْهُ  
قَالَ: اتَّهَمَ الْمُنافِقُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ فُقِدَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ﴾.

وَهَذَا تَبَرُّةٌ لَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - عَنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْخِيَانَةِ  
فِي آدَاءِ الْأَمَانَةِ وَقَسَمِ الْغَنِيمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ﴾ أَي: بِأَنْ يَقْسِمَ  
لِبَعْضِ السَّرَايَا وَيَتْرَكَ بَعْضًا، وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ  
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ. وَقَدْ  
وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنِ ذَلِكَ أَيْضًا فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ  
ﷺ قَالَ: (أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ: تَحْدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ

فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا  
اِقْتَطَعَهُ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ ظَلَمَ  
قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوْقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ) (٢).

وعن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من  
الأزد يقال له: ابن اللثبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي  
لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: (ما بال العامل نبعثه فيجيء  
فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي! أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى  
إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء  
به يوم القيامة على رقبته إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة  
تيعر) ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال: (اللهم هل بلغت) ثلاثاً.  
أخرجه البخاري ومسلم (٣).

(١) «مسند أحمد» (١٧٢٥٥). قال في «مجمع الزوائد»: رواه أحمد والطبراني في الكبير  
وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٢) ومسلم (١٦١٠). وأخرجه أيضاً البخاري (٢٤٥٣)  
ومسلم (١٦١٢) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٥٩٨) والبخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢)، واللفظ لأحمد.

وروى الإمام أحمد عن أبي حميد أن رسول الله ﷺ قال: «هدايا  
العمال غلول»<sup>(١)</sup>. وهذا الحديث من أفراد أحمد وهو ضعيف الإسناد،  
وكانه مختصر من الذي قبله، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ  
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق  
رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله  
وألزم به، فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير.  
وهذه لها نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ  
الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] وكقوله ﴿أَفَمَن وَعَدَّنُهُ وَعَدَّ أَحْسَنَ فَهُوَ لَنفِيهِ كَمَن  
مَنَعْنَهُ مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

ثم قال: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني: متفاوتون في منازلهم  
ودرجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار، كما قال تعالى:  
﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ  
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: وسيوفهم إياها، لا يظلمهم خيراً ولا  
يزيدهم شراً، بل يجازي كلاً بعمله.

(١) «مسند أحمد» (٢٣٦٠١).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿أَي: مِنْ جِنْسِهِمْ لِيَتِمَّ كُنُوزًا مِنْ مَخَاطِبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أَي: مِنْ جِنْسِكُمْ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا لِيَأْتِيَهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلْمِيَا تِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]؛ فَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْإِمْتِنَانِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُلُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ، بِحَيْثُ يُمَكِّنُهُمْ مَخَاطِبَتَهُ وَمُرَاجَعَتَهُ فِي فَهْمِ الْكَلَامِ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ﴿يَعْنِي: الْقُرْآنَ﴾ ﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾ ﴿أَي: يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ لِتَرْكُوهُمْ نَفْسُهُمْ وَتَطَهَّرُوا مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ الَّذِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شُرْكِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ﴿يَعْنِي: الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ﴾ ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿أَي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿أَي: لَفِي غَيٍّ وَجَهْلٍ ظَاهِرٍ جَلِيٍّ بَيْنَ كُلِّ أَحَدٍ.

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ

مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ

التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا

وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ مَوَدَّةٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ

بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا

لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ

الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ وَهِيَ مَا أُصِيبَ مِنْهُمْ يَوْمَ

أَحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي: يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ

قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ قَتِيلًا وَأَسْرُوا سَبْعِينَ أَسِيرًا ﴿مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى

هَذَا﴾ أَي: مِنْ أَيْنَ جَرَى عَلَيْنَا هَذَا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ:  
 ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي: بِسَبَبِ عِصْيَانِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ  
 أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي بِذَلِكَ: الرُّمَاءَ.  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ،  
 لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أَي: فِرَارِكُمْ  
 بَيْنَ يَدَيْ عَدُوِّكُمْ وَقَتْلُهُمْ لَجَمَاعَةٍ مِنْكُمْ وَجِرَاحَتُهُمْ لِأَخْرِينِ، كَانَ بِقِضَاءِ  
 اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: الَّذِينَ صَبَرُوا وَثَبَّتُوا وَلَمْ يَتَزَلُّوا.  
 ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ قَالُوا لَوْ  
 نَعَلِمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سُلُوكَ  
 الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاتَّبَعَهُمْ مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ  
 يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيَابِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾  
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي كَثُرُوا سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ.  
 وَقِيلَ: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾: أَي رَابَطُوا. فَتَعَلَّلُوا قَاتِلِينَ: ﴿قَالُوا لَوْ نَعَلِمُ قِتَالًا

لَا تَبِعَنَّكُمْ ﴿١﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنُونَ لَوْ نَعَلِمُ أَنَّكُمْ تَلْقَوْنَ حَرْبًا لَجِئْنَاكُمْ،  
وَلَكِنْ لَا تَلْقَوْنَ قِتَالًا.

قال الله تعالى: ﴿هُمُ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾  
استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال  
أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان؛ لقوله: ﴿هُمُ  
لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنهم  
يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعَلِمُ  
قِتَالًا لَا تَبِعَنَّكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد  
جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من  
سراتهم<sup>(١)</sup> يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال  
لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو  
سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل.

(١) أي: سادتهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿أَي: إِنْ كَانَ الْقَعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ، فَيَنْبَغِي أَنْكُمْ لَا تَمُوتُونَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

هُمَّ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ

اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ

بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ

﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا

بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ



ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِيَّانَا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الشُّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ وَإِنْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ  
حَيَّةٌ مَرْزُوقَةٌ فِي دَارِ الْقَرَارِ .

روى ابن جرير عن أنس بن مالك في أصحاب النبي ﷺ الذين  
أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة قال: لا أدري أربعين أو سبعين .  
وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك النفر من  
أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدوا فيه، ثم  
قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال  
-أراه ابن ملحان الأنصاري-: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى  
أتى حياً منهم ثم قال: يا أهل بئر معونة، إني رسول رسول الله إليكم، إني  
أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله .  
فخرج إليه رجل برمح فصرَبَ به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر .  
فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة . فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار

فَقَتَلَهُمْ أَجْمَعِينَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

يُرْزَقُونَ﴾ فَقَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: (أَرَوَاهُمْ فِي

جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ

شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ. فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ:

هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا

مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى

نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا)

رواه مسلم (٢).

(١) «تفسير الطبري» (٦/ ٢٣٤). وأخرجه البخاري (٤٠٩١) ومسلم (٦٧٧) بنحوه دون

ذكر نزول هذه الآية في ذلك، وسيأتي لفظه.

(٢) برقم (١٨٨٧).

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ يَسْرُّهَا أَنْ تَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا، إِلَّا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَسْرُّهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ) رواه مُسْلِمٌ (١).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ أَبَا جَابِرٍ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ حَرَامِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا. قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ أَبُو الْوَلِيدِ، عَنْ شُعْبَةَ عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا قَالَ: لَمَّا قُتِلَ أَبِي جَعَلْتُ أَبْيِي وَأَكشَفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْهَوْنِي وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَنْهَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ) (٢).

وَقَدْ رُوِيَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ حَدِيثًا فِيهِ الْبِشَارَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بَأَنَّ رُوحَهُ تَكُونُ فِي الْجَنَّةِ تَسْرُحُ أَيْضًا فِيهَا، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَرَى مَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالسُّرُورِ، وَتَشَاهِدُ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْكِرَامَةِ، وَهُوَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَزِيزٍ عَظِيمٍ، اجْتَمَعَ فِيهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمُتَّبَعَةِ؛ فَإِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ رَوَاهُ عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنِ

(١) برقم (١٨٧٧). وأخرجه البخاري (٢٧٩٥) أيضًا.

(٢) البخاري (٤٠٨٠)، وهو عند مسلم (٢٤٧١) بنحوه.

الزُّهْرِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ) (١). قَوْلُهُ: «يَعْلُقُ» أَي: يَأْكُلُ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ. وَأَمَّا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ، فَكَمَا تَقَدَّمَ فِي حَوَاصِلِ طَيْرِ خُضْرٍ، فَهِيَ كَالْكُوَاكِبِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَرْوَاحِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهَا تَطِيرُ بِأَنْفُسِهَا، فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٠٤﴾ أَي: الشُّهَدَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْغَيْبَةِ، وَمُسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكَوهُ وَرَاءَهُمْ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ بَيْرٍ مَعُونَةِ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ، الَّذِينَ قُتِلُوا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَتَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ، يَدْعُو عَلَيْهِمْ

(١) «مسند أحمد» (١٥٧٧٨).

وَيَلْعَنَهُمْ، قَالَ أَنَسٌ: وَنَزَلَ فِيهِمْ قُرْآنٌ قَرَأْتَاهُ حَتَّى رُفِعَ: (أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا) (١).

ثُمَّ قَالَ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اسْتَبَشَرُوا وَسُرُّوا لِمَا عَايَنُوا مِنْ وَفَاءِ الْمَوْعُودِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هَذِهِ الْآيَةُ جَمَعَتِ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ، سِوَاءِ الشُّهَدَاءِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَلَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ فَضْلًا ذَكَرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَثَوَابًا أَعْطَاهُمْ إِلَّا ذَكَرَ مَا أَعْطَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هَذَا كَانَ يَوْمَ "حَمْرَاءِ الْأَسَدِ"، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا فِي سَيْرِهِمْ تَنَدَّمُوا لِمَ لَمْ يُتَّمُوا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَيَجْعَلُوهَا الْفَيْصَلَةَ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الدَّهَابِ وَرَاءَهُمْ لِيُرِعَبَهُمْ وَيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً وَجَلَدًا، وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ سِوَى مَنْ حَضَرَ الْوَقْعَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، سِوَى جَابِرِ بْنِ

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٠) ومسلم (٦٧٧).

عَبْدَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِمَا سَنَدَكُرُهُ - فَانْتَدَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيَّ مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْإِثْحَانِ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ يَوْمٌ أُحِدَ يَوْمَ السَّبْتِ النِّصْفَ مِنْ شَوَّالٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ لَيْسَتْ عَشْرَةٌ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ شَوَّالٍ، أَدَانَ مُؤَدِّنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ بِطَلَبِ الْعَدُوِّ، وَأَدَانَ مُؤَدِّنُهُ أَنْ لَا يَخْرُجَ مَعَنَا أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ حَضَرَ يَوْمَنَا بِالْأَمْسِ. فَكَلَّمَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبِي كَانَ خَلَفَنِي عَلَى أَخَوَاتِي لِي سَبْعَ وَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي وَلَا لَكَ أَنْ تَتْرَكَ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةَ لَا رَجُلَ فِيهِنَّ، وَلَسْتُ بِالَّذِي أُوتِرْتُكَ بِالْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِي، فَتَخَلَّفَ عَلَى أَخَوَاتِكَ، فَتَخَلَّفْتُ عَلَيْهِنَّ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ مَعَهُ. وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُرْهَبًا لِلْعَدُوِّ، وَلِيَبْلُغَهُمْ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِهِمْ لِيُظَنُّوا بِهِ قُوَّةً، وَأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ لَمْ يُوهِنَهُمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: يَا ابْنَ أُخْتِي، كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَمَّا أَصَابَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَأَنْصَرَفَ

عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا فَقَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟» فَاثْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١).

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: إن الله قذف في قلب أبي سفيان الرُّعْبَ يومَ أُحُدٍ بعد ما كان منه ما كان، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرْفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ). وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَدَبَ النَّاسَ لِيَنْطَلِقُوا مَعَهُ، وَقَالَ: (إِنِّي ذَاهِبٌ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْنِي أَحَدٌ) فَاثْتَدَبَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ، وَطَلْحَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَحَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي سَبْعِينَ رَجُلًا فَسَارُوا فِي طَلَبِ أَبِي سُفْيَانَ، فَانزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال.

(١) البخاري (٤٠٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (٦/٢٤٢) بإسناد مسلسل بالعوفيين، وهو إسناد لين.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَبَعُوا لَكُمْ فَأَخَشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿أَي: الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ النَّاسُ بِالْجُمُوعِ وَخَوْفُهُمْ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ، فَمَا أَكْتَرْتُوا لِذَلِكَ، بَلْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَاسْتَعَانُوا بِهِ﴾ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِيلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ﴾ ﴿أَي: لَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ كَفَاهُمْ مَا أَمَّهُمْ وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى بِلَدِهِمْ﴾ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِيلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ﴾ ﴿مِمَّا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد روى البخاريُّ عن ابنِ عباسٍ أنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالَوا: ﴿النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَبَعُوا لَكُمْ فَأَخَشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ ﴿أَي: يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذُووُ بَأْسٍ وَذُووُ شِدَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا

(١) البخاري (٤٥٦٣).



تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ أَي: فَإِذَا سَوَّلَ لَكُمْ وَأَوْهَمَكُمْ، فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ وَالْجَاؤُوا إِلَيَّ، فَأَنَا كَافِيكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾

يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْأَخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ

الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا

نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ  
 الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ  
 اللَّهُ لِيُطَّلِعَ عَلَيْكُمُ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ فَمَا مَنُوءُ  
 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۗ وَإِن تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا  
 يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ  
 هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ ۗ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ مِيرَاثُ  
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ، وَذَلِكَ  
 مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ كَانَ يُحْزِنُهُ مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ  
 وَالْعِنَادِ وَالشَّقَاقِ، فَقَالَ تَعَالَى: لَا يُحْزِنُكَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْعًا  
 يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أَي: حِكْمَتُهُ فِيهِمْ أَنَّهُ يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ  
 وَقُدْرَتِهِ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ إِخْبَارًا مُقَرَّرًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أَي: اسْتَبَدُّوا هَذَا بِهَذَا ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أَي: وَلَكِنْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنََّّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ قُرْآنٌ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦، ٥٥] وَكَقَوْلِهِ ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] وَكَقَوْلِهِ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أَي: لَا بُدَّ أَنْ يَعْقِدَ سَبَبًا مِنَ الْمِخْنَةِ، يَظْهَرُ فِيهِ وَبِئْسَ، وَيَفْتَضِحُ فِيهِ عَدُوُّهُ. يُعْرَفُ بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ، وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ. يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ الَّذِي امْتَحَنَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَظَهَرَ بِهِ إِيْمَانُهُمْ وَصَبْرُهُمْ وَجَلَدُهُمْ وَثَبَاتُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَتَكَ بِهِ سِتْرَ الْمُنَافِقِينَ، فَظَهَرَ مُخَالَفَتَهُمْ وَنُكُولَهُمْ عَنِ الْجِهَادِ وَخِيَانَتَهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ ❖ أَي: أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّى يُمَيِّزَ لَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبَىٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ❖ كَقَوْلِهِ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ﴾ ❖ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦١﴾ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِنْ رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿[الجن: ٢٧، ٢٦].﴾

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ❖ أَي: أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا شَرَعَ لَكُمْ ❖ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ❖.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ ❖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ❖ أَي: لَا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالَ يَنْفَعُهُ، بَلْ هُوَ مَضْرَةٌ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ، وَرُبَّمَا كَانَ مَضْرَّةً عَلَيْهِ فِي دُنْيَاهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَالِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُوبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ❖.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ شُجَاعًا<sup>(١)</sup>) أَقْرَعَ لَهُ زَبَيْتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشَدْقَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ) ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ رواه البخاري<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: فَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرَّجِعُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَدِّمُوا لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَي: بِنِيَّاتِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا

عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ

(١) أي: تُعْبَانًا.

(٢) برقم (١٤٠٣، ٤٥٦٥).

بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَا  
نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ  
رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ  
صٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا  
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ .

وعن ابن عباس قال: لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا  
فِيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالت اليهود: يا مُحَمَّدُ، افتقر  
رَبُّكَ؟ يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ  
اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم.  
وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديدٌ ووعيدٌ؛ ولهذا قرنه بقوله: ﴿وَقَتَلْتُمُ  
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسل الله،  
وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ  
الْحَرِيقِ﴾ ﴿١٨١﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد ﴿أي: يُقال لهم ذلك تقيعًا وتحقيرًا وتصغيرًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ تَكْذِيبًا أَيْضًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ أَلَّا يُؤْمِنُوا بِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَكُونَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنَّ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَقُبِلَتْ مِنْهُ أَنْ تَنْزَلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَعَيْرُهُمَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ: بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أَيُّ: وَبِنَارٍ تَأْكُلُ الْقَرَابِينَ الْمُتَقَبَّلَةَ ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أَيُّ: فَلِمَ قَابَلْتُمُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ وَقَتَلْتُمُوهُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْكُمْ تَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَتَتَّقَادُونَ لِلرُّسُلِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ: لَا يُوهِنُكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ، فَلَكَ أُسْوَةٌ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مَعَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُتَلَقَّاءُ مِنَ السَّمَاءِ، كَالصُّحُفِ الْمُنزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ: الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴿ لَتُبْلَوْنَ فِي

أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن

تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَامًّا يَعُمُّ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

الْمَوْتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿

[الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ

يَمُوتُونَ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَنْفِرُ الْوَاحِدُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

بِالْدَيْمُومَةِ وَالْبَقَاءِ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا.

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ

الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ، فَإِذَا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ وَفَرَعَتِ النُّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ

وُجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ وَانْتَهَتِ الْبَرِيَّةُ، أَقَامَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ وَجَارَى الْخَلَائِقَ



بِأَعْمَالِهَا جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا، فَلَا يَظْلَمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ \* أَي: مَنْ جُنِبَ النَّارَ وَنَجَا مِنْهَا وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَقَدْ فَازَ كُلَّ الْفَوْزِ.

روى ابنُ أبي حاتمٍ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤُوا إِن شَاءَ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾) (١). وَهَذَا حَدِيثٌ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ (٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَأَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ) (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ \* تَصْغِيرًا لِشَأْنِ الدُّنْيَا، وَتَحْقِيرًا لِأَمْرِهَا، وَأَنَّهَا دَنِيئَةٌ فَانِيئَةٌ قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/٨٣٣)، وأخرجه أيضًا الترمذي (٣٠١٣) وابن حبان

(٧٤١٧) والحاكم (٢/٢٩٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) البخاري (٣٢٥٠) ومسلم (١٨٨١) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٩٣) ومسلم (١٨٤٤).

الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿[الأعلى: ١٧، ١٦]﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]. وَفِي الْحَدِيثِ: (وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَعْمَسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعِ إِلَيْهِ؟) (١).

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ هِيَ مَتَاعٌ مَتْرُوكَةٌ، أَوْشَكَتْ - وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - أَنْ تَضْمَحَلَّ عَنْ أَهْلِهَا، فَخُذُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ طَاعَةَ اللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَتَبْلُوكُنَّمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿[البقرة: ١٥٥، ١٥٦]﴾ أَي: لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ، إِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ.

(١) أخرجه أحمد (١٨٠١٢) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨) وابن حبان (٤٣٣٠) من حديث المستورد بن شداد. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمُ الْمَدِينَةَ قَبْلَ وَقَعَةِ بَدْرٍ، مُسَلِّيًا لَهُمْ عَمَّا نَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَامْرًا لَهُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ حَتَّى يُفْرَجَ اللَّهُ، فَقَالَ: ﴿وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

روى البُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ؛ أَنَّ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَكِبَ عَلَيَّ حِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ وَأَرْدَفَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقَعَةِ بَدْرٍ، قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ (١) خَمَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ: لَا تُغْبِرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ وَقَفَ، فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: أَيُّهَا الْمَرْءُ، إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، ارْجِعْ إِلَى

(١) أي: الغبار التي أثارته الدابة.

رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَشَاوِرُونَ فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكْتُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "يَا سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَيَّ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ - يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي - قَالَ كَذَا وَكَذَا". فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ فَوَاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّوهُ وَيُعَصَّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ شَرِيقَ ذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يُعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩] وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ فِي الْعَفْوِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ

اللَّهُ ﷻ بَدْرًا، فَكَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي اِبْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَسْلَمُوا<sup>(١)</sup>.

فَكَلَ مَنْ قَامَ بِحَقِّ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنِ مُنْكَرٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُوَدَّى، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ

وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا

قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا

أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ

مِنَ الْعَذَابِ ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ۝

(١) البخاري (٤٥٦٦). وأخرجه مسلم (١٧٩٨) مختصرًا.

هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يُتَوَّهُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ لِيَكُونُوا عَلَى أَهْبَةِ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَابِعُوهُ، فَكْتُمُوا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالذُّونِ الطَّيْفِ، وَالْحِظِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ، فَبَسَّتِ الصَّفْقَةُ صَفْقَتَهُمْ، وَبَسَّتِ الْبَيْعَةُ بَيْعَتَهُمْ! وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْأَلُوا مَسْأَلَتَهُمْ فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيُسَلِّكَ بِهِمْ مَسْأَلَتَهُمْ، فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ، الدَّالِّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طَرَفِ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ عَنْ عِلْمِ فَكْتَمَهُ الْجَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُرَائِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ بِمَا لَمْ يُعْطُوا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ ادَّعَى دَعْوَى

(١) أخرجه أحمد (٧٥٧١) وأبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٣) وابن حبان (٩٥) والحاكم (١٠١/١) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن، وفي الباب عن جابر وعبد الله بن عمرو.

كَاذِبَةٌ لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قَلَّةً<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِينَ: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورًا)<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِرَافِعٍ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقُلْ لِيْنِ كَانَ كُلُّ امْرِيٍّ مَنَّا فَرِحَ بِمَا أَتَى وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مَعْدَبًا، لِنُعَذِبَنَّ أَجْمَعُونَ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَهَذِهِ؟ إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مَثْمَلًا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾ وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الْآيَةَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكْتَمُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنَّ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>.

وفي الصحيحين أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

(١) أخرجه مسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٩) ومسلم (٢١٣٠) من حديث أسماء.

(٣) البخاري (٤٥٦٨) ومسلم (٢٧٧٨).

إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْغَزْوِ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية (١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

لَايَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ

تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا

إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ

الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ .

(١) البخاري (٤٥٦٧) ومسلم (٢٧٧٧).



﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: هَذِهِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا،  
 وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ  
 الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوَاكِبَ سَيَّارَاتٍ، وَثَوَابِتَ وَبِحَارٍ، وَجِبَالٍ وَقِفَارٍ وَأَشْجَارٍ  
 وَنَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ، وَحَيَوَانٍ وَمَعَادِنٍ وَمَنَافِعَ مُخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ وَالطَّعُومِ  
 وَالرَّوَائِحِ وَالْخَوَاصِّ ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أَي: تَعَاقَبَهُمَا وَتَقَارَضَهُمَا  
 الطُّولَ وَالْقِصَرَ، فَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا  
 مِنْ هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ  
 الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَي: الْعُقُولِ التَّامَّةِ الدَّكِيَّةِ  
 الَّتِي تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيَّاتِهَا، وَلَيْسُوا كَالصَّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا  
 يَعْقِلُونَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَكَأَن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ  
 مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى أُولِي الْأَلْبَابِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا  
 وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أَي: لَا يَقْطَعُونَ ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ  
 وَضَمَائِرِهِمْ وَالسَّتِّهِمْ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي:  
 يَفْهَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحِكْمِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَلِمِهِ

وَحِكْمَتِهِ، وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: إِنِّي لَأُخْرِجُ مِنْ مَنْزِلِي، فَمَا يَقَعُ بَصْرِي عَلَى شَيْءٍ إِلَّا رَأَيْتُ لِلَّهِ عَلَيَّ فِيهِ نِعْمَةً، أَوْ لِي فِيهِ عِبْرَةٌ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ.

وَقَالَ الْفَضِيلُ: قَالَ الْحَسَنُ: الْفِكْرَةُ مِرَاةٌ تُرِيكَ حَسَنَاتِكَ وَسَيِّئَاتِكَ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْفِكْرَةُ نُورٌ يَدْخُلُ قَلْبَكَ. وَرُبَّمَا تَمَثَّلَ بِهَذَا

الْبَيْتِ:

إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ      فِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: الْكَلَامُ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَسَنٌ، وَالْفِكْرَةُ

فِي نِعَمِ اللَّهِ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ.

وَقَالَ مُغِيثُ الْأَسْوَدُ: زُورُوا الْقُبُورَ كُلَّ يَوْمٍ تُفَكِّرُكُمْ، وَشَاهِدُوا

الْمَوْقِفَ بِقُلُوبِكُمْ، وَانظُرُوا إِلَى الْمُنْصَرَفِ بِالْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ،

وَأَشْعِرُوا قُلُوبَكُمْ وَأَبْدَانَكُمْ ذِكْرَ النَّارِ وَمَقَامِعَهَا وَأَطْبَاقَهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: رَكْعَتَانِ مُقْتَصِدَتَانِ فِي تَفَكُّرٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ

لَيْلَةٍ وَالْقَلْبُ سَاهٍ.

وَقَالَ بَشْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْحَافِي: لَوْ تَفَكَّرَ النَّاسُ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا عَصَوْهُ.

وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ: سَمِعْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ وَلَا اثْنَيْنِ وَلَا ثَلَاثَةً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ: إِنَّ نُورَ الْإِيمَانِ التَّمَكُّرُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا: أَنْشَدَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:

نَزْهَةَ الْمُؤْمِنِ الْفَكْرُ	لَذَّةُ الْمُؤْمِنِ الْعِبرُ
نَحْمَدُ اللَّهَ وَحَدَهُ	نَحْنُ كُلُّ عَلَى خَطْرُ
رُبِّ لَاهٍ وَعُمْرُهُ	قَدْ تَقَضَّى وَمَا شَعَرَ
رُبِّ عَيْشٍ قَدْ كَانَ فَوْ	قِ الْمُنَى مُونِقَ الزَهْرُ
فِي خَرِيرٍ مِنَ الْعِيُو	نِ وَظِلٍ مِنَ الشَّجَرِ
وَسُرُورٍ مِنَ النَّبَا	تِ وَطَيْبٍ مِنَ الثَّمَرِ
غَيْرَتِهِ وَأَهْلَهُ	سَرَعَةُ الدَّهْرِ بِالْغَيْرِ
نَحْمَدُ اللَّهَ وَحَدَهُ	إِنَّ فِي ذَا لِمُعْتَبَرِ
إِنَّ فِي ذَا لَعِبْرَةً	لِلْبَيْبِ إِنْ اِعْتَبَرَ

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّلَالَةَ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَآيَاتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ

مُشْرِكُونَ ﴿ [يوسف: ١٠٥]، وَمَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قَائِلِينَ ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾ أَي: مَا خَلَقْتَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا، بَلْ بِالْحَقِّ لِتَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَتَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ. ثُمَّ نَزَّهَهُ عَنِ الْعَبَثِ وَخَلَقِ الْبَاطِلِ فَقَالُوا: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أَي: عَنِ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أَي: يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، يَا مَنْ هُوَ مُنْزَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبَثِ، قِنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقِيَّضْنَا لِأَعْمَالٍ تَرْضَىٰ بِهَا عَنَّا، وَوَقَّضْنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتَجِيرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْأَلِيمِ.

ثُمَّ قَالُوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ ﴾ أَي: أَهْتَهُ وَأَظْهَرْتَ خِزْيَهُ لِأَهْلِ الْجَمْعِ ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ.

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ أَي: دَاعِيًا يَدْعُو إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا ﴾ يَقُولُ: ﴿ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا ﴾ أَي: فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ ﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أَي: بِإِيمَانِنَا وَاتِّبَاعِنَا نَبِيَّكَ فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، أَي: اسْتُرْهَا. ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا

سَيِّئَاتِنَا ﴿ أَيُّ: فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ. ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ﴿ أَيُّ: أَلْحَقْنَا  
بِالصَّالِحِينَ. ﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: عَلَى الْإِيمَانِ  
بِرُسُلِكَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ. وَهَذَا أَظْهَرَ.

﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ﴿ أَيُّ: عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ ﴾ ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ  
الْمِيعَادَ ﴾ ﴿ أَيُّ: لَا بُدَّ مِنَ الْمِيعَادِ الَّذِي أَخْبَرْتَ عَنْهُ رُسُلَكَ، وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ  
عِمْرَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
قَالَ: بَتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ  
رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثَ اللَّيْلِ الْآخِرِ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: ﴿ إِنِّي فِي خَلْقِ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلِفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَأْتِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ ثُمَّ قَامَ  
فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ،  
ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ (١).

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ كُرَيْبٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ: فَاسْتَيْقَظَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنَامِهِ، فَجَعَلَ يَمْسُحُ النُّومَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ

(١) البخاري (٤٥٦٩، ٧٤٥٢) ومسلم (٧٦٣).

الآيات الخواتيم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شنّ مُعلّقة فتوضّأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي (١).

وعن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة، رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر: زُرْ غِبًّا تَزِدُّ حُبًّا. فقال ابن عمر: أخبرينا بأعجب شيء رأيت من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربّي عز وجل. فقلت: والله إنني لأحبُّ قربك، وإنني أحبُّ أن تتعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضّأ ولم يكثر صبّ الماء، ثم قام يصلي، فبكي حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكي حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكي، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: (ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثم قال: ويئل لمن قرأها ولم يفكر فيها). رواه ابن حبان في صحيحه (٢).

(١) البخاري (١٨٣) ومسلم (٧٦٣/١٨٢).

(٢) برقم (٦٢٠).

وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ «التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ» وَفِيهِ:  
قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ: سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ عَنِ أَدْنَى مَا يَتَعَلَّقُ  
بِهِ الْمُتَعَلِّقُ مِنَ الْفِكْرِ فِيهِنَّ وَمَا يُنَجِّيه مِنْ هَذَا الْوَيْلِ؟ فَأَطْرَقَ هُنِيئَةً  
ثُمَّ قَالَ: يَقْرَأُهُنَّ وَهُوَ يَعْقِلُهُنَّ.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۗ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا إِلَّا نَهَرٌ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١١٥﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَي: فَأَجَابَهُمْ رَبُّهُمْ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۗ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّ لَّا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْإِجَابَةِ، أَيُّ قَالَ لَهُمْ مُّجِيبًا لَهُمْ: أَنَّهُ لَا يَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ لَدَيْهِ، بَلْ يُوفَّى كُلَّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ، مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أَيُّ: جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءً. ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أَيُّ: تَرَكُوا دَارَ الشَّرْكِ وَأَتُوا إِلَىٰ دَارِ الْإِيمَانِ وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْخُلَّانَ وَالْإِخْوَانَ وَالْجِيرَانَ ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أَيُّ: ضَايَقَهُم الْمُشْرِكُونَ بِالْأَذَى حَتَّىٰ أُلْجَأُوهُمْ إِلَىٰ الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ أَيُّ: إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَىٰ النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا﴾ وَهَذَا أَعْلَىٰ الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُعَقَّرَ جَوَادُهُ، وَيُعَقَّرَ وَجْهُهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُّحْتَسِبًا مُّقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيَكْفُرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ قُتِلْتُ؟»، فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ، فَقَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ. قَالَ لِي جِبْرِيلُ أَنْفًا».



وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَا دَخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ  
الْمَشَارِبِ، مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنَ  
رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ  
عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطَى إِلَّا جَزِيلًا كَثِيرًا.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أَي: عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ  
عَمِلَ صَالِحًا.

﴿لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦) مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ  
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ  
جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ  
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨).

يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَا هُوَ لِأَيِّ الْكُفَّارِ مُتَرْفُونَ فِيهِ، مِنَ النَّعْمَةِ  
وَالغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ، وَيُصْبِحُونَ مُرْتَهِنِينَ

بَأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَإِنَّمَا نُمَدُّ لَهُمْ فِيهَا مَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا، وَجَمِيعُ مَا هُمْ فِيهِ  
 ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وِبِئْسَ الْمَهَادُ﴾.

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا  
 يَعْرُوكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ  
 الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦١﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيْقُهُمْ  
 الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿ [يونس: ٦٩، ٧٠] وَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُوبُلًا﴾ [الطارق: ١٧] أَي: قَلِيلًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ  
 وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ  
 الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَذَكَرَ مَا لَهُمْ إِلَى النَّارِ قَالَ بَعْدَهُ:  
 ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
 نُزُلًا﴾ أَي: ضِيآفَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا  
 أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ  
 ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

### لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يخبرُ تعالى عن طائفةٍ من أهل الكتابِ أنّهم يؤمنون بالله حق الإيمان،  
 وبما أنزل على محمدٍ، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم  
 خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذلّلون بين يديه.

قال مجاهد: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: مسلمة أهل

الكتاب.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتفون ما بأيديهم  
 من البشارات بمحمدٍ ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهو لاء  
 هم خيرة أهل الكتابِ وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى. وقد قال  
 تعالى في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾  
 وَإِذْ أَنبَأْنَا عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ  
 أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٢-٥٤] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ  
 يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى ءَأَمَنُوا بِآيَاتِنَا فَخَرْنَا

وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ؕ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ؕ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ تُوْجَدُ فِي الْيَهُودِ وَلَكِنْ قَلِيلًا كَمَا وُجِدَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِ مِمَّنْ آمَنَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَلَمْ يَبْلُغُوا عَشْرَةَ أَنْفُسٍ، وَأَمَّا النَّصَارَى فكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَنْقَادُونَ لِلْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥]. وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ ﴿كَهَيَعَصَّ﴾ [مريم: ١] بِحَضْرَةِ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، وَعِنْدَهُ الْبَطَارِكَةُ وَالْقَسَاوِسَةُ، بَكَى وَبَكَوْا مَعَهُ، حَتَّى أَخْضَبُوا لِحَاهِمُ (١).

وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ لَمَّا مَاتَ نَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَقَالَ: (إِنَّ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ). فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الصَّحْرَاءِ، فَصَفَّهِمْ، وَصَلَّى عَلَيْهِ (٢).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا تُوفِّي النَّجَاشِيَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ). فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: يَا مُرْنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لِعَلْجٍ مَاتَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ. فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية (٣).

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠) والبيهقي (١٤٤/٩) من حديث أم سلمة الطويل في خبر الهجرة إلى الحبشة.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٢٠) ومسلم (٩٥٢) من حديث جابر بنحوه، وأخرجه البخاري أيضاً (١٢٤٥) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٩٥٣) من حديث عمران بن حصين بنحوه.

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٨٤٦/٣). وأخرجه أيضاً النسائي في «الكبرى» (١١٠٢٢) والطبراني في «الأوسط» (٢٦٦٧)، وصححه الضياء في «المختارة» (٤٠/٥).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
(ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ) فَذَكَرَ مِنْهُمْ: (وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ  
بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي) (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ \* أَي: لَا يَكْتُمُونَ مَا  
بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ، كَمَا فَعَلَهُ الطَّائِفَةُ الْمَرْدُؤَلَةُ مِنْهُمْ، بَلْ يَبْدُلُونَ ذَلِكَ  
مَجَانًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ \*.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ \* قَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ  
لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدْعُوهُ لِسَرَاءٍ وَلَا لَضُرَّاءٍ، وَلَا لِشِدَّةٍ وَلَا لِرِخَاءٍ،  
حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ. وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ  
عُلَمَاءِ السَّلَفِ.

وَأَمَّا الْمُرَابِطَةُ فَهِيَ الْمُدَاوِمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالثَّبَاتِ. وَقِيلَ: انْتِظَارُ  
الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ  
الْقُرْظِيُّ، وَغَيْرُهُمْ.

(١) البخاري (٣٠١١) ومسلم (١٥٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ  
الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا  
إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ،  
فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ) (١).

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُرَابَطَةِ هَاهُنَا مُرَابَطَةُ الْغَزْوِ فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ، وَحِفْظُ  
تُغُورِ الْإِسْلَامِ وَصِيَانَتِهَا عَنْ دُخُولِ الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوْزَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ  
وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ بِالْتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ، وَذَكَرَ كَثْرَةَ الثَّوَابِ فِيهِ.

فَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ،  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ  
مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا) (٢).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (رِبَاطٌ  
يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ  
يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ) (٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٥١).

(٢) البخاري (٢٨٩٢).

(٣) مسلم (١٩١٣).

فَهَذَا مَا تَيْسَّرُ إِيرَادُهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا الْمَقَامِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ  
عَلَى جَزِيلِ الْإِنْعَامِ، عَلَى تَعَاقُبِ الْأَعْوَامِ وَالْأَيَّامِ.<sup>(١)</sup>

وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّ ابْنَ  
أَبِي سُكَيْنَةَ قَالَ: أَمَلَى عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ بِطَرَسُوسٍ،  
إِلَى الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: سَنَةِ سَبْعِ  
وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا	لَعَلَّمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بَدْمُوْعِهِ	فَنُحُورِنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلِ	فُخْيُولِنَا يَوْمَ الصَّبِيْحَةِ تَتْعَبُ
رِيْحِ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا	وَهَجُ السِّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا	قَوْلُ صَاحِحٍ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي وَغَبَارَ خَيْلِ اللَّهِ فِي	أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانَ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا	لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

قَالَ: فَلَقِيتُ الْفُضَيْلُ بْنَ عِيَاضٍ بِكِتَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَمَّا قَرَأَهُ  
ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: صَدَقَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَنِي.

(١) ذكر المؤلف الحافظ ابن كثير - رحمه الله - أحاديث كثيرة في فضل الرباط في سبيل الله،  
أوردت منها هنا هذين الحديثين فقط.



وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرَظِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: وَاتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ غَدًا إِذَا لَقِيتُمُونِي.

\*\*\*

قال الإمام ابن كثير:

هذا آخر تفسير سورة آل عمران

ولله الحمد والمنة

نسأله الموت على الكتاب والسنة

\*\*\*

تم المختصر بحمد الله

\*\*\*